الفصل الرابع

مارشال هول

١٦ سبتمبر ١٨٥٨ - ٢٣ فبراير ١٩٢٦

«إن عملى وعمل الممثل صنوان، غير أنى لا أستعين بمناظر، ولا بكلمات محضرة، ولا بأستار، وإنما أخلق من الحقائق والأحلام فى حياة بعض الناس جوًا صالحًا، لأن هذه هى المحاماة»

مارشال هول

المحامى الموهوب

هذا رجل إنجليزى كأنه فرنسى، ليس فيه الدم البارد الذى يمتاز به العنصر السكسونى من بين العناصر، ناقض قومه، فأتعبهم وأتعبوه، ولكنهم أحبوه... واختلف مع القضاة ومع الناس ومع مصلحته، فلم يفشل ولم تذهب ريحه، وتحالفت روعة منظره وثورة عاطفته وقدرته على الارتجال على أن تجعل منه أعجوبة فى الإنجليز.

ما أصدق قولهم إذ أطلقوا عليه أنه «لابورى إنجلترا» لما كان بين المحامين العظيمين من أسباب التشابه.

كان «فرنان لابورى» فى فرنسا بطل قضايا «فايان» و «دريفوس» و «إميل زولا» التى شغلت الفكر العالمى فى خاتمة القرن الماضى وفاتحة هذا القرن. فى إهابه كل خصائص الجنس الفرنسى، واللاتينى، من استجابة للعواطف وقوة إنفعال وسرعة تعبير وقوة تصوير. وهى عروض لا تنفق فى أسواق الجزر المنعزلة فى غربى القارة... كأنما استقلت عنها لتتصرف فيها، وفى الدنيا.

لكن نبوغه الخارق، فى أمة تصدف عن كل ما هو استثنائى، وتطوى كشحًا، عما يروع ويبهر، جعل منه محاميًا عالميًا، كما جعل من ذاته ومن خطوات حياته، حقائق جديرة بالتعجب.

وفى سنة ١٩٢٣ ظفر بالبراءة لمرجريت فـ ... بعد إعترافها بقتل شاب من «ذوات» مصر هو المرحوم عـ .. فـ .. وحملت أسلاك البرق من كل أرجاء المعمورة تهانىء الناس لمارشال هول ومنها تلك البرقية التى وجهها إليه باعثها على أنه «أكبر محام على وجه الأرض»...

لقد كان ألمع نجوم المحاماة فى أعلى أمم الأرض حضارة. فلم يك بدعًا أن يقترن مجده بسؤددها وجلالها بجلاله.

بدأ حياته القضائية – كما قال لورد «بركنهد» – «رجلا يحكم الغريب عنه لو رآه فى أى فترة من فترات حياته – حتى فى أحلك ساعاته – أنه مقدور له النجاح». حبته العناية الإلهية بسجية هى المحاماة فى صميمها، أعنى بها الشجاعة. واختصته بنظرة نافذة إلى الأعماق مكنته من فهم الطبيعة الإنسانية والتغلغل فى أغوارها، ونفس طبعها الفن بالجليل العالى من مزاياه. فكان رجل الساعة فى أفدح القضايا خطرًا. وثمة وجده مواطنوه كما قال «هنرى روبير» فى مرثيته «لفرنان لابورى» «قوة من قوى الطبيعة، ومارداً فى الدفاع» مثل كما قال: «لورد

بركنهد» عن «مارشال هولى» فاجتمع الرأيان وتوافق المصوران كما تطابقت الصورتان «ماردا بين الرجال، فى مخبره وفى مظهره».

ومكن هذه الشهرة الباهرة طول العمر، وعظم الأحداث وتنوعها، من محن شخصية إلى محن غير شخصية، ومن جروح فى المحاماة إلى قروح فى مجلس العموم، ومن محام يروع الناس ببوادر القوة التى يحارب بها فى قضاياه، إلى محام أكبر روعة وهو يحارب بعد إذ حطمته السنون، قعيدًا على كرسى تحيط به أسباب العلاج! أفرطت الصحافة فى تمجيده، وأغرقت فى التثريب عليه، حتى أوشك الدولاب القوى للرجل العبقرى أن يتوقف.

ولما مسه القرح جاءته المحن تترى، جميعًا، كأنها على ميعاد، فاجتمعت عليه مآس عائلية كأساطير «راسين» و «كورنى» و «شكسبير» وهجوم مدير من السلطة الرابعة وهى الصحافة، وخصومات مع السلطة الثالثة التى هى القضاء. وفقدان كرسيه فى السلطة الثانية التى هى مجلس العموم. فى ظروف خال فيها أعداؤه وأولياؤه أن هامته العالية، وقامته المتطاولة، ستنحنيان: أن كانتا لا تتحطمان، لكن ثغره كان يفتر عن بسمة مشرقة بالأمل، واثقة بالظفر، كما تنفرج السحب عن شمس السماء، وكانت ثقته بذاته تجتذب قلوب الأعداء والأصدقاء، على السواء، فكانت محنته أكبر أسباب محبته.

ولما خاصم القضاء خاصمه لحساب موكليه وعلى حساب نفسه، فحمل وحده سخط العالم القضائى مضحيًا كل شىء فى سبيل المحاماة.

ولما بويع له فى «المملكة المتحدة» على أنه كبير محامى العصر لم تكن تلك البيعة لقاء مواهبه القانونية قدر ما كانت جزاء ما فيه من فيوض الإنسانية.

كان جميلا يحب الجمال، فى الزهر، وفى الحلى، وفى لوحات الفن، ملئت حياته كأغلب الفنانين بالعوارض، وبالتناقض، وبالبأساء، فلم تنطفىء جذوته، ولما حان حينه دعاه داعى الردى فى إبان نظر الأخيرة من قضاياه، فمات مدججًا بسلاحه.

* * *

ولد السير «إدوارد مارشال هول» فى ١٦ سبتمبر سنة ١٨٥٨ لأب طبيب. كان أبوه محاميًا، فورث من أبيه قريحة مستنيرة فى الطب والعقارات أدت له أجل الخدمات وهو فى أوج عمله فى قضايا السموم، وورث من أمه جمالها فكان رائع المنظر حسن السمت، بائن الطول (ست أقدام وثلاث بوصات).

وتبدت عجائبه منذ حداثته، فهو يذهب إلى مدرسة قسيس فيهوى أخت القسيس، قبل أن يعرف الهوى! ويهوى الأسلحة النارية، فتظل درايته بأسرارها عونًا له فى قضاياه حتى يموت.

بدأت معرفته بالمحكمة يوم خطا إليها خطواته الأولى فى الرابعة من عمره ليشهد مع أبيه قضية سم خطيرة ففتح قلبه منذ ذلك اليوم للوقوف إلى جوار المتهم.

اجتمع فى تلك القضية أمران كانا ميدانا لمعاركه طول حياته وهما السم والجنون: فتاة عزمت ان تدس السم لزوجة طبيب تبغى الزواج منه فمزجت «الاستركنين» بمقادير من الشيكولاتة فى محل معروف، كانت تبعث فى طلبها فتسممها ثم تعيدها معتلة بعدم موافقتها حتى إذا اشتراها المشترون شاع أذاها فى الناس فبعدت عنها الشبهة!

لكن سمامها أودت بولد صغير فقدمت للمحاكمة ودانها المحلفون، فادعت الحمل حتى لا تعدم، ودعى لفحصها محلفات فيهن طبيب للكشف عليها منظارًا مكبرًا فذهب ضابط فشرى له... منظارًا بحريًا...! معتذرًا بأنه أصغر ما وجد فى السوق!.

ولما ثبت كذبها انفجرت باكية وانفجر المحلفات فى مقاعدهن باكيات!! وخار ما كانت تحتفظ به فى إبان المحاكمة من هدوء وغشيتها غاشية من الهذيان إنتهت بإيداعها مستشفى الأمراض العقلية.

وتجلت طبيعة «مارشال هول» كرجل كفاح فى براعته فى لعبة «الكركت» فصار زعيما للفرق أينما حل، وفى الثامنة عشرة وظفه أبوه كاتبًا فى شركة. فمكث غير بعيد ثم عاد إلى مدرسته فلم يكد يدرس سنوات حتى إنصرف عنها وراح يهيم فى مدن العالم. فقضى نحو عام فى الحى اللاتينى بباريس يدرس فى مدرسة الدنيا، ويتجر فى المجوهرات، يشتريها من باريس ويبيعها فى لندن. أو يشتريها من لندن ويبيعها فى باريس، واتخذها هواية غدت من بعد دراية، طالما أفاد منها فى قضاياه.

وشد رحله إلى سفر بعيد... إلى أستراليا... وعاد عن طريق السويس وجبل طارق، ملآن الذهن بالمعارف، معمور الفؤاد بالتجارب.

ثم عمد إلى دراسة القانون بكمبردج، فقضى عامين وتخرج سنة ١٨٨٢ فى الرابعة والعشرين ليبدأ فترة التمرين كمحام مترافع Barrister.

والمحامى المترافع، فى هذه الأمة التى تعتصم بتقاليدها من أن تشرك العالم، كما تعتصم بأمواج المحيط من الإختلاط بالأمم، لا يتصل بالموكلين. وإنما يتصل بهم المحامى غير المترافع Solicitor. فهذا الأخير يتخذ الإجراءات ويجمع المستندات، أما الأول فهو يصدر الفتوى ويترافع.

وإذا كانت التقاليد القضائية توجب إنتخاب القضاة من المترافعين. فإن القضاة يسهرون على صيانة كل ما يميز المترافعين من غير المترافعين.

وبينما نجد المحامى غير المترافع فى غالب الأمر شريكا لجماعة من زملائه فى مكتب، نرى المترافعين أرفع من أن يكون لهم شركاء.

المحاماة المترافعة إذن تعتمد كل الإعتماد على المحاماة غير المترافعة، ما دام غير المترافعين هم سبيل المترافعين إلى المتقاضين.

وكثيرًا ما تنتهى القضايا فى مكاتب الأولين فلا يبقى للمترافعين إلا ما يصل إلى الجلسات، والإنجليز بطبيعتهم أمة «تسويات» كأفراد وكأمة. وهم أكثر الناس قصدًا ونصفة فيما بينهم... فهم يصالحون خضوعًا لأحكام المحامين مخافة الإجراءات القضائية وما أطولها، بل ما أقصر العقل عن التثبت من عواقبها.

سأل محام شاب رئيس محكمة فى فرنسا عن الصلح فى الخصومات فأجابه «إن كان حق موكلك قويًا فصالح عليه خصمك! وإن كان ضعيفًا فترافع...» كأنما يقول إن الدعوى المضمونة الكسب قد تخسر فالصلح خير فلا تجازف، والمضمونة الخسار قد تكسب والقضاء مقامرة ففيم لا تجازف..! فالصلح للأولى درء للاحتمال السيء والمرافعة فى الثانية مجازفة قد لا تنتهى بتحقيقه...!

وقديمًا اتهم الخصوم أخطب الخطباء «ديوستين» وهم له ظالمون فلاذ بالفرار من سجنه حتى لا يتعرض للمحاكمة، فمن ذا يضمن عواقب المحاكمة؟

قال دورمسون Dormesson وقد طالما حكم بين الناس بالقسطاس «لو اتهمت بسرقة قبة كنيسة نوتردام وسمعت الناس من خلفى ينادون اقبضوا على اللص، لكان أول ما أفعله أن ألوذ بأذيال الفرار...».

تلك سلطات المحامين غير المترافعين على القضايا قبل أن تصل إلى يد المترافعين فإذا وصلتهم لم تخضع كل الخضوع لتصرفهم، إذ هى تصل إليهم بعد أن يجمع المستندات والأوراق المحامى الذى لا يترافع، فترتبط بخط سيره..! فهو لا يعدو أن يكون زميلا... وإن لم يكن هو الذى سيتكلم..

ولقد تكون حقيقة الواقع، أن موكل المحامى المترافع، هو المحامى غير المترافع.

ولا يصير المحامى مترافعًا إلا إذا نجح فى إمتحان أمام مجلس للدراسات القانونية، مؤلف من أعضاء منتخبين من دور المحاكم الأربع التى يقيد المحامى فى جدول واحدة منها، ويحضر دراساتها ثلاث سنين للتمرس بالبحوث العملية فى كنف أستاذ مترافع، ولا تمنع التقاليد غير الإنجليز أن يدرسوا هذه الدراسات، أو يجوزوا تلك الإمتحانات أو يحترفوا المحاماة.

فإذا نجح المحامى الشاب فى الإمتحان صار مستشارًا ناشئًا J.C. أى: Junior Council

حتى إذا برزت كفاياته فى الوسط القضائى سمى مستشار الملك King's Council أو K, C أى محاميًا كبيرًا.

وللمحامين المترافعين جماعات ينضوون تحت لوائها.

وللمحامى الإنجليزى كبرياء تقليدية فترى كاتبه يحدد مواعيده، وصلاته بالناس، وتراه لا يتحدث عن الأتعاب وإنما يتحدث الكاتب.

بل إن فى ظهر ردائه جيبًا صغيرًا يرمز إلى عادة درج المحامون المترافعون عليها من قديم الزمان أيام كان الموكلون يضعون الأتعاب فى ظهر المحامى دون أن يراها... أو يراهم...

أما الكاتب فلا يرقى إلى درجة محام مترافع ولا محام غير مترافع... وإنما يترقى إلى كاتب قاض.. وهى وظيفة ذات شأن هناك.

* * *

بدأ المحامى الناشىء أعماله فى المحاماة... ولبث غير قليل لا يهبط عليه ذلك الإنسان الملائكى الذى يتراءى للمحامى، بعد قيد اسمه، فى شكل موكل، تحت جناحه قضية...! ثم إذا بقضيتين يوكل فى كل منها فى مقابل جنيه واحد! وانشرح القاضى صدرًا بمواهبه المبشرة، وجاد عليه بكلمة من الكلمات التى لا تكلف القاضى شيئًا وتصنع للمحامى كل شىء، فلم يكد يبرح قاعة الجلسة حتى وكل فى نفس اليوم، فى قضية بعد ظهر اليوم... بثمانية جنيهات.

واختص بالقضايا الجنائية، فكان يترافع فى كل قضية، ولكل موكل وفى كل محكمة، فآتاه التنويع فى القضايا أعظم الثمرات، وأتيحت له قضية فتى قتل حبيبته بعد أن أسلمت الكرى أجفانها فى غرفة استأجرها ليبيتا فيها ليلة القتل، فلما أرداها قصد إلى دار عمته للإعتراف بجريمته وتحرير وصيته.

كانت نظرية «مارشال هول» أنه قتلها فى ساعة جنون، لكن المحكمة قضت بإدانته فلم يكد يسمع الحكم حتى مسه طائف من الخبل لم يتخل عنه حتى ألغى الحكم.

وترافع ضد امرأة بقال ولود، قدمت أحد عشر طفلا للوجود، فى سبع عشرة سنة، لكنها ذبحت منهم ذات يوم ثلاث بنات وهن نائمات.

وظفر زميله عنها بالحكم المنشود - وهو عقوبة القتل مع الجنون.

وتعدد ظهوره فى مواقف الإتهام فى تلك الأيام، مع أن تمثيل الإتهام كان ضد طباعه، ولقد طالما حمد الله إذا جعله يقضى حياته فى مواقف الدفاع.

أو كما كتب لأحد أصدقائه «أن الوقوف دائمًا ضد المتهم، مهما قبحت التهم، ينتهى بإهدار

العاطفة الإنسانية فى الإنسان، ولقد نصحنى الأصدقاء بذلك قديمًا فانتصحت وعدلت عن تمثيل الإتهام».

وأدركت الصحافة من ذلك الحين خصائص مرافعته فكتب كاتب أنه «يقاتل بشدة فى قضاياه، ويقف أحيانًا دون مبالاة، أمام القضاة» وكم كلفه ذلك من العناء!...

عنف قاض شاهدًا لم يتذكر واقعة من الوقائع فصاح «مارشال هول»: «عندما أرى أعضاء من الهيئة القضائية. يصنعون هذا الصنيع أظنه فاضحًا».

بل هو لا يرحم المشرع فيقول عن بعض القوانين «لقد شرعت هذا القانون أغلبية لم توفق إلى نصح».

انتقد قاض سؤالا له، فأمر بعدم توجيهه قائلا: أنت تعلم أن توجيه سؤال كهذا عمل معيب جدًا...

فأجاب «عندما يرى الرجل رأيًا ليس من السهل أن يعدل عنه».

قال القاضى: لا ترافع.

قال الأستاذ: سأترافع لأننى أوتيت أجرًا على أن أترافع.

وترافع. وكسب.

وكان القاضى «ماتيو» لا يطيقه - روى «مارشال» أن صديقًا لها، عرض أن يجمع بينهما، فقصدا إليه فى النادى ولبث «مارشال» فى الخارج ريثما يتحدث الصديق إلى القاضى ويعود فيصحبه إليه، لكن الصديق كر بعد دقيقة على عقبيه وهو يقول: (لا. لا فائدة. إنه يكرهك).

ترافع يومًا عن فتاة فى جريمة حريق فبنى دفاعه على أن اشتعال النار كان «عوارض» لا يفعل فاعل وأنها شبت من «مكواة»، وكان «ماتيو» رئيس الجلسة فعارضه، قال مارشال هول: إنى رأيت بعينى رأسى نارًا اشتعلت على هذا النحو وأسهمت فى إخمادها.

ولقد استبان بعد وجود أعواد ثقاب فى مكان الحادث، فقال «ماتيو» ترى هل سيقول المستر «مارشال» إن أعواد الثقاب اشتعلت من نفسها...؟ فلعله يعرف أعواد ثقاب تشتعل من نفسها إذا نادى عليها وهو فى مخدعه!

* * *

ولكن ما لهذا الوجود الإنسانى يعلن الحرب شعواء على نوابغه...!

لقد كانت مأساة «مارشال هول» فى داره أفدح وأهول من أروع المآسى فى قضاياه...

وإذا كان الرجل لا يستطيع أن يكافح فى الدنيا العريضة إلا إذا كان مطمئنًا فى دنياه

الصغيرة، وهى داره، فلقد كانت آية الشجاعة عند هذا الرجل العظيم الشجاعة، أنه وهو يتجرع غصص حياته العائلية، كان يكافح فى الخارج ببطولة تسمو على الإطراء.

قال للشبان يومًا، وما كان يتحدث إلا عن نفسه «افتحوا دفترًا للحسنات والسيئات فى الحياة. وسجلوا الحسنات بحروف كبيرة فى صفحة الدائن. أما المتاعب فقيدوها بحروف صغيرة، وأصغر ما تستطيعون، فى صفحة المدين، فالحياة لا تزداد سعادة بإدامة التفكير فى المحن».

والحق أنه أخذ نفسه بهذه النصيحة أكثر مما أخذ بها أى إنسان سواه.

سمع «مارشال هول» من زوجته - يوم جلوتها - أنها لا تحبه! وأذاقته المر من شهر العسل، تتركه فى باريس يذرع الشوارع بحثًا عنها، وتهدأ لتغضب، فيتخبطه الشيطان، ومع ذلك يتجر فى المجوهرات ليستوفى نفقات رحلتها.

كانت مرهفة الحس محطمة الأعصاب، فلم تكن لفتى قلق، حساس، يكسب نفقات حياته بالجهد واللغوب، يأوى إلى سكنه بعد معارك النهار، ينشد الرفد أو الراحة فلا يلقى إلا نفحات العذاب! وإن الاضطراب لينتقل من داره إلى أعصابه ثم إلى أعماله فيتخلى عن القضايا ويحيلها على زملائه - وقد عرفوا ما جاءه من البأس - ليترافعوا فيها بدلا منه متساندين فى ميدان الإخاء العظيم الذى هو المحاماة.

ولم يك بد مما ليس منه بد فتتاركا... وحاول أن يدفن آثار شقوقه فى آخر الدنيا، ولاحت فى الأفق بوارق الأمل أن شغرت وظيفة المدعى العمومى فى «جاميكا» سنة١٨٨٨.

أما هى - فرحلت إلى إستراليا فمكثت غير بعيد ثم قفلت راجعة وتلقاها ضابط حدث فتحابا، فاستزلها الشيطان، فأحست بالجنين يضطرب فى أحشائها...! وأهرعت إلى طبيب للإجهاض ورأت شبح المنية، فأبرقت فى ساعة العسرة إلى «مارشال» بباريس، فخف الفتى المسماح فرآها فارقت الحياة بين يدى الطبيب بعد ستة أعوام نحسات من ذلك الزواج.

وسيق الطبيب إلى قاعة المحكمة التى،طالما جلجل فيها، من بعد، صوت «مارشال هول» لتسجل دفاترها عار أكبر محاميها! وخمسة أعوام للطبيب..!

وعاش «مارشال» يجتر تعاسته بالذكريات.

لكنها يد السماء على الأرض، فقد شاركت المحن فى تأليف مزاجه. فصارت مآسى موكليه مآسيه، وكأنما قذفت نفسه فى النار، فخرج منها كما يخرج المعدن الحر بعد الإختبار، ففرط أنداده وفاق أترابه.

وإنه ليترافع فى إحدى قضاياه بعد حين من الدهر، فيصبح فى مرارة تقد الصخر «قد يكون الزواج فى بعض الحالات أبعد العلاقات الإنسانية عن الفضائل».

بل هو بعد بضعة عشر عامًا فى قضية «آنى داير» المتهمة بقتل طفل لها من سفاح ينفجر تلك الإنفجارات الباهرة فيقول: «... إن قوانين الطبيعة تلقى العبء كله - جائرة - على عاتق المرأة فى هذا الشأن دون الرجل ومع أن الجريرة جريرة اثنين فالعقوبة كلها تقع على واحد...».

وفى قضية «مارى هرمان» يصيح والدمع ينهمر على خديه: «اجعلوا الناس يتذكرون أن النساء لسن إلا مايصنع منهن الرجال، حتى هذه المرأة كانت فى يوم من الأيام طفلًا بريئًا..» ثم أدار وجهه فبصر بها تنتحب فصرخ فى وجوه المحلفين صرخة مدوية تذيب الفؤاد:

«.. انظروا أيها السادة، إن السماء لم تمنحها فرصة فامنحوها..».

❁ ❁ ❁

وشفت الحياة نفسها، وإن بقيت فيها آثار تدوب، وتلألأ النجم فى آفاقه، فلم يكد يبلغ الأربعين حتى تجلى فى سماء الحياة القضائية على أنه «معبود المحاماة» The Apollo of the Bar بما اجتمع له من مران واسع فى الصناعة وتجارب كبرى من صروف الزمان، وحيا مشرق ناطق القسمات، وأعصاب مستجيبة لما يواجهها من الفوادح، وعبارات سريعة، مندفعة، وأسلوب لا تستوقفه الصغائر ولكنه يضرب دائمًا فى الصميم، وبأقوى قواه.

كان من عقيدته أن المحامى ملك الناس لا لنفسه، وفى حضوره عون للعدالة أيًا كانت الحال.

لم يك مثل «بتولو» يباهى فى خريف العمر بأنه لم يتول الدفاع فى قضية لم يكن ليحكم فيها ضد موكله لو كان فى كرسى القضاء...!

وفى الحق إن المحامى الجنائى غير المحامى المدنى، وحضور المحامى فى الجنايات واجب أوجبه القانون. وكان أكثر قضاياه قضايا جنائية.

لم يعرف عنه فى خلال عمره الطويل أنه تردد فى قبول الدفاع إلا فى قضيتين. ومع ذلك فقد أبى القدر إلا أن يحضر فيهما ليتلقى فى كل منهما درسًا على يد القضاء...

ففى الأولى: استشار «السير رتشارد وبستر» فقال له: أرأيت لو كنت طبيبًا. أكنت ترفض أن تعالج سيدة ختم اليأس على علتها؟

فقبل، ودرس، وظهرت له البراءة فأظهر عليها المحلفين فبرؤوها. فصار يقول: لقد تلقيت درسًا لا أنساه أبدًا.

وفى الثانية: جاءه وزير سابق متهم فى جريمة خلقية، فحاول الخلاص منه واعتل عليه بطلب فادح فى الألعاب فدفعها من فوره! فلم يك بد له من المرافعة، ولاحت له فى شهادة الشاهد الأساسى فى القضية ثغرات نفذ منها إلى البراءة.

ولما جاء يشكر له قال: ألم أقل لك إنى برىء!...

فأجابه: إنى لم أعد أن أقنعت المحكمة بأن التهمة غير ثابتة!! فقبض الرجل يدًا كان بسطها لمصالحته... ومضى...

ودار «مارشال» على عقيبه يقول:

لا دخل لذلك فى الأتعاب ولا فى آداب المحاماة.

❁ ❁ ❁

وفى مارس سنة ١٨٩٤ قدمت إلى محكمة الجنايات قضية عاطفية أجرت ذكر المحامى الشاب على ألسن الناس.

تناهت إلى أسماع الجيران ذات مساء من غرفة «مارى هرمان» أصداء عراك، وصوت يقول: تكلم. تكلم. وآخر يقول: قتل! وعرف المحققون بعد ذلك أنها بارحت مسكنها وقت الحادث واشترت «براندى» ثم نقلت أثاثها بعد أيام من مسكنها وراقبها البوليس، وفتش المسكن الجديد، فكشف فى أحد صناديقها جثة رجل عجوز.

لم تكد تستجوب حتى قالت إنها التقطته مخمورًا بالطريق العام فلما هم بها امتنعت عليه، إذ لم يكن معه مال، فضربها وضربته، وغشى عليه وصاحت به «تكلم»... ثم خرجت فاشترت زجاجة الخمر «البراندى» وضمادات لجراحه... وسقته، وضمدته، فنام، ولم يفق منذ نام...

وسيقت إلى المحكمة متهمة بالقتل والسرقة.

كان هم «مارشال هول» أن يثبت أن جراح القتيل من جراء اشتباكهما.

وتناول وضع الإصابات ووضع القاتلة من القتيل. إذ أمسك بعنقها فدافعت عن نفسها بأن ضربته، وهو عجوز مخمور... واستغل خلافات الأطباء فى كلمات بارعة كقوله: «إذا قضيتم بسوق هذه السيدة فستشنقونها برأى طبيب واحد بين أطباء»!!

واستطرد يبين لماذا قالت «تكلم» فلقد كانت مروعة إذ سكت،الأنها لم تكن تريد أن تسكت أنفاسه بالوفاة! وإلا فلماذا أسعفته بالبراندى والضمادات.

وإن وظيفة المرأة التى فطرها عليها فاطر السموات والأرض هى التطبيب!

وصاح والدمع ينهل على خديه «اجعلوا الناس يتذكرون أن النساء لسن إلا ما يصنع منهن الرجال، حتى هذه المرأة كانت فى يوم من الأيام طفلا جميلا وبريئًا!»

وجلس بلا أمل بعد ثلاثة أيام من الكفاح ولكنه ألقى وهو يجلس بصره على القفص فبصر بالمتهمة تنتحب فى ذعر، فانبعثت منه الأنة العالية «انظروا أيها السادة! إن السماء لم تمنحها فرصة فامنحوها...»

ورأى المحلفون إدانتها ولكنهم طلبوا لها الرأفة، ليمنحوها الفرصة..

وقضى بسجنها ست سنين.

❁ ❁ ❁

وفى خاتمة القرن وقعت فضيحة «بالفور» فقدم للمحاكمة مع آخرين وتولى «مارشال هول» الدفاع عن الشريك «بروك» فاهتزت باسمه أسلاك البرق فى مهاب الرياح الأربع.

كان «بالفور» عضوًا فى البرلمان وعمدة «لكريدون» فتقدم للشعب بمشروعات شركات لبناء المساكن يربح السهم فيها ٨٪، فسالت إليه أموال الأمة، واستخدم «جورج بروك» فى القيام على شركاته، من شركة بناء، إلى شركة تأمين، إلى شركة أراضى، إلى بنك لخدمة هذه الشركات...

وأباح للمديرين أن يتعاملوا مع الشركات التى يديرونها بأرباح، فربط مصايرهم بمصايرها، وخزائنهم بخزائنها، وازداد الكسب بكل سبب، ولم يمض طويل وقت حتى كانت أرباح المديرين وأرباح المكتتبين تأتى من اغتيال رءوس الأموال!

ومع ذلك فقد استمر إقبال الناس على الاكتتاب معتمدين على اسم «بالفور».

فلما آذنت الشركات بالانهيار، فر إلى أمريكا الجنوبية بما استطاع الفرار به، وضبط بعد قليل فسيق إلى إنجلترا، وكان قد استوطن البلاد وغزا قلوب أهليها، حتى ليسابق الفرسان القطار لينتزعوه من قبضة البوليس.

وفى سنة ١٨٩٥ قدم للمحاكمة مع شركائه يتصدرهم «جورج بروك»، متهمًا بتزوير أوراق لموازنة حسابات الشركات، وتقدم لتمثيل الاتهام وللدفاع عن «بالفور» أساطين الفقه الجنائى فى إنجلترا.

كان «بروك» - كالأوراق التى يصطنعونها - تحت أمر وإذن «بالفور»! لكنه لم يكن يحلم بأن شركاته ستنهار ذلك الانهيار حتى ليودعها كل مدخرات زوجته. بل إنه ليودع إحدى الشركات ٣٥٠٠ جنيه قبيل افتضاح الأمر...!

ولقد كان ذلك العصر عصر امتحان النظم البرلمانية، ففى فرنسا اتهم النواب فى ١٨٩١ رئيس المجلس «فلوكيه» بأنه ارتشى من شركة قناة «بناما» بثلثمائة ألف من الفرنكات! وتداولت الصحف اعترافاته، فراح المسكين يقول للمجلس الذى يرأسه: إننى أخذت ذلك

المبلغ من أجل صيانة النظام الجمهورى!! وقبض على الشيوخ والنواب والوزراء! واتهم «كلمنصو» نفسه، فدافع عن نفسه ببيانه وبمسدسه!! ضد النائب العظيم أو الشاعر العظيم «دروليد» وحكم بالحبس على «شارل دلسبس» ونجا الأب «فردينان» من محكمة الجنايات لمضى المدة.

وفى نفس العهد كان النائب «ولسن» صهر «جيل جريفى» رئيس الجمهورية يتجر فى أوسمة الجمهورية، وهو مقيم فى قصر رئيس الجمهورية! فحكم عليه بالحبس عامين... ولم ينج إلا بدفاع قانونى فى الاستئناف.

واستقال رئيس الجمهورية المسكين، وأضاف الفرنسيون - وكل شىء عندهم ينتهى بأنشودة - أضافوا إلى أغانيهم تلك الأغنية «كم كانت العصور الخالية عصورًا قاسية! كانوا يعلقون اللصوص على الصليب - يشنقونهم - أما الآن فهم يعلقون الصليب «النيشان» على اللصوص».

وفى نفس العصر كانت فضائح شركات «روكفلر» فى أمريكا، من رشوة النواب والشيوخ والوزراء، فلما حوكمت شركاته قضى عليها بأكبر غرامة عرفها التاريخ القضائى فى العالم «تسعة وعشرون مليون دولارا» وقال له القاضى «لانديس» (إنى لآسف إذ لا أستطيع الحكم بأكثر من ذلك حتى تساوى الغرامة فظاعة الجريمة، وإنه «روكفلر» أصاب الهيئة الاجتماعية بأفدح مما يصيبها به المزورون والمختلسون).

ترافع مارشال هول كما قالت جريدة معاصرة «مرافعة بليغة العبارة متزنة الأداء، صادقة، مخلصة، تلائم الظروف إلى أبعد الحدود». قال: عرفت بروك لثلاثة أعوام خلت وإنى لأجزم من ملاحظتى الشخصية له أنه رجل شريف برىء، لقد فقد كل شىء. وإنه لينفق على دفاعه من عطف أصدقائه! إن من الحقائق المسلمة أن رجالا يغالون فى تقدير رجال آخرين فيسيرون وراءهم بكما، عميًا، دون أن يفكروا فى التحقق من أمرهم على استقلال.

وأشاد بتحمله المسئولية عن سواه من المحاسبين، وكان حصيفًا لم تفارقه الفطانة، حتى إنه ليوجه سؤالا ويعتذر عنه فى إسماح يخلب الألباب قائلا: إنى أعتذر عنه لأنى لا أراه منتجًا... فنهض المدعى العام يعتذر له عن اعتذاره، قائلا: ليس فى الإمكان أبدع مما كان!!

ولما انتهى من دفاعه هنأه السير «وبستر» - وكان من هيئة الاتهام بقوله: إنى لم أسمع خيرًا من ذلك فى طول ما حييت لا شكلا ولا موضوعًا...!

ذاعت فى هذه القضية مقدرة مارشال هول على تحريك القلوب فى القضايا العاطفية، فوضع قدمه فى سلم المجد ولم يتوقف عن الصعود.

وقبل النطق بالحكم قال رئيس الجلسة «لبالفور»: «لقد قيل إن الأيام لو واتتك لنجحت شركاتك، أى استترت زلاتك. لكن نجاحها لم يكن ليمحو الغش الذى سودت به وجه الدنيا فى أعين المساكين من مخدوعيك. إن قضبان الحديد لن ترد عن أذنيك أنات الثكالى والأرامل اللائى جلبت الخراب عليهن».

وأدار وجهه إلى «بروك» يقول «لقد وقفت إلى جانب «بالفور» وأسهمت فى انهياره لأنك مدين له فى كثير مسوق إلى تأييده بعاطفة لا تقاوم - وكان لزامًا عليك أن تتذكر أنه ليس من الشرف أن يكون الرجل غير أمين».

وحكم على «بروك» بتسعة أشهر، وعلى «بالفور» بأربعة عشر عامًا ولم يكد «بروك» يبرح السجن إلا إلى القبر.

وأما «بالفور» فاستوفى أعوامه الأربعة عشر، وخرج يبحث عن عمل.

❁ ❁ ❁

وفى سنة ١٩٠٠ ترافع عن «آنى داير»: فتاة عاملة، خدعها رجل من الطبقة الراقية، متزوج، فرحلت إلى حيث وضعت حملها. وفى ذات يوم قالت للفتاة التى تقوم على خدمتها «كيف يمكن التخلص من طفل كهذا».

ونام الطفل فى مخدعه ثم لم يعثر له على أثر.

ورحلت فى الغداة إلى أخت لها.

وجدّ البوليس فى آثارها ودارت عجلة التحقيق فأجابت «سأقول لك الحق لقد قتلته - إننى لم أعرف كيف أتصرف فيه - لقد وضعته فى صندوق - ستجده هنالك».

وعثر البوليس على الصندوق حيث دلت عليه.

ووجه إليها البوليس تهمة القتل فاعترفت - وكان أفدح الأدلة عليها قولها «كيف يمكن التخلص من طفل كهذا».

أما الدفاع فكان بديعًا: إذ جعل عبارتها دليل براءتها، مع تعديل بسيط فى النبرات والإشارات، وفى إخراج العبارات، جدير بالمحامى الذى طالما مثل نفسه بالممثل.

فإذا قالت الفتاة التى ترضع طفلها وتهدهده «كيف يمكن التخلص من طفل كهذا!» فإنما هى قالة الحب والإعجاب!... وهى على كل حال ليست كلمة القصد المصمم على إعدام وليد بين يديها، تسلمه ثدييها...

أما قولها «لقد قتلته - إنى لم أعرف كيف أتصرف فيه - لقد وضعته فى صندوق» فإن المعنى الإجرامى فيه يستحيل إلى معنى إخبارى فيه مرارة الندم للإهمال، إذا صح قوله عنه وهو أن ترتبط الجملة الثانية بالثالثة وأن تنفصل عن الأولى.

ولقد أيد ذلك التخريج فهم مفتش البوليس للعبارات عندما دونها. فلم يتهمها بالقتل العمد، فى محضره؛ ولكنه اتهمها بمجرد القتل... أى بمجرد التسبب فيه.

وانطلق يصب على الاتهام نارًا. وتحركت ذكرياته، وارتاع الحضور لذلك الفيضان الدافق من الفصاحة... لكن أحدًا - اللهم إلا مساعده وقاضيه - لم يدرك لماذا يتضافر تياران من المرارة، وقوة العبارة، على الأخذ بمجامع القلوب، كقوله «إن قوانين الطبيعة تضع العبء كله جائرة على عاتق المرأة فى هذا الشأن دون الرجل، ومع أن الجريرة جريرة اثنين فالعقوبة كلها تقع على واحد! لقد فكرت فى أن أكشف لكم عن الرجل الذى اختلس من هذه الفتاة فضيلتها، لكننى آثرت أن أعفيه وزوجه، وأن أدع الفتاة السجين تحمل وحدها كامل العبء وكل النتائج».

تأثرت المحكمة بكل كلمة فاه بها الدفاع، فقال القاضى للمحلفين فى تلخيصه:

«لاشك أن المتهمة كانت مشغوفة بوليدها. إنى لم أشهد فى حياتى قضية كان لتبرات الصوت فيها هذا المدى من الأثر. وإن ما روته الشاهدة عن قول المتهمة «كيف يمكن التخلص من طفل كهذا» مع بعض الضغط على كلمة «يمكن» ليزيد الأمر تعقيدًا. أما عن قولها لمفتش البوليس «لقد قتلته. إننى لم أعرف كيف أتصرف فيه» فإنا لو وقفنا عنده ثم استأنفنا قولها «لقد وضعته فى صندوق» فإنه يكون قولا عجبًا. مثلما هى الحال إذا قالت «لقد قتلته لأنى لم أعرف كيف أتصرف فيه». فإذا وقفنا قليلا بعد عبارة «لقد قتلته» ثم استأنفنا قولها «إننى لم أعرف كيف أتصرف فيه ووضعته فى صندوق» فلا تكون العبارة ذات خطر».

ورأى المحلفون البراءة.

وتعالت الهتافات فقال القاضى للجمهور نحن فى محكمة لا فى مسرح.!

وفى ختام العام وقعت وقائع قضية يارموث، فترافع فيها إحدى روائع مرافعاته. وسنورد خلاصتها بعدُ.

مع السلطة الثانية

فى سنة ١٨٩٩ قرأ كف مارشال هول أحد شهود قضاياه، فتنبأ له نبوءات قال عنها فى كتاب بعث به إليه فى سنة ١٩٢٤ «لقد حققت الأيام صحة نبوءاتك إلى حد عجيب»...

قال قارئ الكف لاشية فى كفك تشير إلى نجاح حتى الخامسة والعشرين، لكنك تتبوأ بعد الثلاثين مكانك بين عظماء صناعتك. إن فى رأسك بلاغة أكثر من المنطق. وأسوأ ما فى كفك الجانب العاطفى. سيغرم بك النساء لكنهن لن يسعدنك! وفى حياتك زواجان أولهما بئيس، يصيب كل حياتك. وستموت وأنت فى قمة المجد، وفى كامل أهبتك».

ولمح القارئ بعد قراءة كفه إلى أنه يرى جماهير تحتفل به وإلى جواره سيدة فى شرفة تلوح للجماهير بمنديل أبيض ولكنه لم يتبين حقيقة الأمر فى هؤلاء.

ولم يكد ينصرم العام حتى جاءته تباشير الحياة السياسية حيث كان يقضى إجازته بعيدًا عن لندن يتأهب لقضاء الصيف فى «مارينباد».

وفى صبيحة يوم السفر إلى مصيفه تعجله البرق لمقابلة «اللورد دربى» بلندن، فخف إليها حيث عرض عليه أن يخوض غمار الانتخابات فى دائرة «سوث بورت»، لينتزع من يد حزب الأحرار مقعد اللورد «كرزون» وكان الأحرار قد غلبوا عليه المحافظين فى الانتخابات السابقة.

ومع أنه لم يكن يستحب معارك الانتخابات، فقد خب فيها ووضع... وضع يومًا نداءه الانتخابى ودفعه إلى نادى المحافظين فى الدائرة قائلا «لقد أنفقت ساعات فى إعداده بمساعدة زميلى «المستر مور» وهو حجة فى النحو».

وهكذا فى تلك المناسبة من مناسبات الغرور لم يفارقه من طباع المحامى العظيم الاعتراف بمجهود مساعديه.

كتبت إليه فى سنة ١٩٠٠ إحدى المعجبات به عقب قضية «يارموث» تطلب صورة «لأكبر المحامين رشاقة وعبقرية» فبعث إليها بشكره، وبصورة زميله عن المتهم!

تجلت عبقريته فى الانتخابات كما تتجلى أرواح الجان: تساءل خصمه قائلا «من مارشال هول هذا؟ إنه لا عنوان له»! فأجاب «مارشال هول»: «إذا انتظر منافسى بضعة أسابيع فسيعلم أن عنوانى الدائم: مجلس العموم».

كان التشابه كبيرًا بينه وبين «كيرزون» لكن طباعهما كانت تتنافر، كان هول رجلا شعبيًا

أما «كيرزون» فلمصر به عهد يذكرنا بصلفه وكبره فى مفاوضات عدلى – كيرزون.. ولما مات قال شاعر إنجليزى «إننا نشيعه بالثناء. لكن أعيننا جافة».

مشى المرشح الجديد فى أسواق «سوثبورث» يعرض عروضًا انتخابية تفتنّ فيها طبيعة المحامى الساحر، والصائد الماهر، كأن تضع زوجته الجديدة فى فمها سيجارة، أو ورقة لعب، فيصيب الورقة والسيجارة بمقذوف نارى وهى بين شفتيها...!

وقاطعه رجل فى اجتماع انتخابى فأهاب به أن يصعد إلى المنصة لجداله! وصعد المسكين ولم يسمع الناس صوته فسألوا: ماذا يقول؟ فصاح «مارشال هول»: هو يقول إنه يتمنى لى النجاح!...

وفهم خصومه، بعد الأوان، أن الصعود إلى المنصة محنة المحن...! لقد سعى إليها أحد المعارضين يومًا فلم يكد يبلغها حتى تقطعت به الأسباب، وأدرك أنه وقع فى حباله. فصاح فى فزع المستجير «لقد انسقت كما يساق الكبش إلى الذبح!... أهذه أساليبكم فى معاملة الرجال؟ أنا فى دهشة.. إن التقاليد المسيحية لا تسمح بهذا الخ.. الخ..»

وبارح الاجتماع بين صيحات السخرية وضحكات النظارة.

كان يتلو فى اجتماع انتخابى لاحق فقرات من نظام وضعه المحافظون لاستخدام العمال وكان خصومهم يصمونه بأنه نظام استرقاق فراح يتلوه، مادة مادة. ويتساءل: أهذا نظام استرقاق! وكانت كثرة المجتمعين ضده، فكان الجواب: نعم، فكان يستطرد ثم يسأل ويكون الجواب: نعم!... نعم!... فحانت منه لفتة بارعة من لفتات الارتجال، قال: «أنا سعيد بهذه الإجابات.. إن النصوص التى أتلوها نصوص النظام الذى وضعه خصومنا»

ظفر مارشال هول بالكرسى، واحتفت به الجماهير وهو فى شرفة الدار» إذ أعلنت نتيجة الانتخابات، وكانت زوجه إلى جواره، تلوح للجماهير بمنديل أبيض!... تمامًا مثلما تنبأ قارئ كفه.

قام يتكلم لأول مرة بمجلس العموم تأييدًا لمشروع قانون لمنع الأطفال أن يتعاطوا المسكرات فى المحال العامة. وارتفع صوت عضو ساخر يقول «لماذا لا توزع البيرة عليهم فى بيوتهم فى البكور، كما يوزع اللبن فى قوارير»؟ فتابع الخطيب الفكرة قائلا «لم لا؟» وفيما هو يستطرد ضج المجلس كله بالضحك.

كانوا يضحكون معه، فظنهم يضحكون منه، فلم يغفرها لمجلس العموم أبدًا.

ولم يظهر له بهذا المجلس بعدئذ أثر فى موضوع ذى خطر.

وبقى فى المجلس كأنه عضو أشل يقدره زملاؤه حق قدره، لكنهم لا ينظرون إليه كسياسى جدى.

وإن تعجب فعجب أن تجود السماء على البلدين المتغايرين فى الدم والطباع، برجلين كأنهما نسختان لأصل واحد، فى الدم والطباع، وفى المجلس التشريعى:

كان «لابورى» عضوًا فى مجلس الشيوخ الفرنسى لكنه - كدأب «مارشال هول» فى مجلس العموم البريطانى - لم يكن له أثر، فلقد كان حسبهما دنيا حافلة بالمآسى يحملان فيها أفدح الأعباء إلى جوار مواطنيهما.

كان «مارشال هول» يقدم نفسه كلها، مع فنه كله، لموكليه، فى الوقت الذى كانت ترن فيه أصداء صوت «لابورى» فى أرجاء العالم، بدفاعه عن «فايان» إذ ألقى القنبلة فى مجلس النواب الفرنسى، ذلك الدفاع الذى لا تستطيع بعد تلاوته إلا أن تتساءل مع النقيب «پايان»: «كيف لم يبرئوا المتهم؟» وبكفاحه عن «إميل زولا» و «دريفوس» مضحيًا فى سبيلاعقيدته المال والراحة، والطمأنينة والرفاهة.

ولما نفذ رصاص الحمقى فى جسده، لم ينفذ الرعب إلى قلبه، بل أجلت القضية ثلاثةأشهر حتى يبرح المستشفى ليترافع ضد الجيش وحزب الجيش ومنهم مطلق الرصاص!

ولما هوت من فم النائب العام وهو إلى جوار المحكمة فى أعقاب قضية «إميل زولا» (١٨٩٨)كلمة استهجنها «لابورى» رشقه بأروع كلام يرتجله محام، فى وجه الاتهام، ذبًا عن حياض المحاماة. قال «إن سبابك التى سقطت من كرسيك الرفيع لن تستطيع الصعود إلى المنصة الرفيعة التى أتراقع منها».

وكأنما كان «شارل شنى» يصف «مارشال هول» وهو يصف «لابورى» «... قامته العالية المستقيمة وصدره العريض وكتفيه اللتين تشبهان أكتاف المصارعين. كل ذلك فى تجانسه وانسجامه ينم عن قوة لا يمكن قهرها. وقسمات وجهه الجميلة المنتظمة التى تتفجر حياة فى حدة الصراع... وعاطفته المهتاجة تنشر الشحوب على وجهه، وإذا بصوته يرتفع وينتفخ ويدوى كصوت الرعد...»

وفى سنة ١٩٠١ دعى «لابورى» إلى انجلترا فكرمته جمعية المحاماة المسماة جماعة «هاردويك» وكان فى رياستها المحامى الإنجليزى العظيم «ماتيوز».

فلما مات «لابورى» أبّنه ماتيوز بقوله «... إن لابورى بما فيه من الجرأة المزهوة، والوفاء لعمله كمحام، يمثل مكانة عالية فى قائمة أكبر محامى العالم. إن اسمه وشهرته لا يمكن أن تزولا بل سيعيشان طويلا ما دام نظام المحامين قائمًا على وجه الأرض».

وما أصدق هذه الأقوال فى جملتها وتفصيلها لو وصف بها مارشال هول، كمحام وكإنسان.

مع السلطتين الثالثة والرابعة
القضاء والصحافة

فى سنة ١٩٠٠ سلكت الصحافة فى قضية «يارموث» مسلكا معيبًا، إذ انطلق الصحفيون يزيفون الأسانيد، ويهددون الشهود، بل يحققون ويحكمون، فاصطنعوا رأيًا عامًا ضد المتهم، وتقدم الدفاع إلى المحكمة بطلب إجراء المحاكمة بعيدًا عن «نورفولك» حيث المحكمة ذات الاختصاص المحلى، وكان قبولها ذلك الطلب حكمًا قاطعًا بأن الصحافة أفسدت عقيدة الرأى العام.

حاول الدفاع أن يكبح جماح صحيفة «الإيفننج نيوز» واندفع كدأبه فقهر «صاحبة الجلالة الصحافة» وَعَرّها فى الخطاب، فهى عنده «كالغول يشرب من دماء ضحاياه» بل إنه ليقول للقضاة «إن الصحافة اعتدت عليكم مثلما اعتدت على المتهم».

وبعد قليل وكلته الممثلة الآنسة «شاتل» ضد صحيفة «الديلى ميل» لطلب ١٠٠٠ جنيه تعويضًا عن كلمة جارحة، وكان الدفاع عن «الديلى ميل» قد اعترف بخطئها وطلب ثلاثة أسابيع لتحضير الدفاع.

فلما ترافع «مارشال هول» قال فيما قال: إن طلب الصحيفة ثلاثة أسابيع لتحضير الدفاع – مع اعترافها بالخطأ – لم يك إلا أجلا مطلوبًا للتنقيب عما يتعلق بالمدعية فى سائر أقطار إنجلترا!

ثم قال: قد تكون موكلتى ملزمة بالعمل لكسب رزقها، لكن لها من الحق فى احترام سمعتها ما لسائر السيدات فى إنجلترا، بما فيهن الليدى «هار مسورث» (زوجة صاحب الديلى ميل).

وكانت «الديلى ميل» قد نشرت أن الآنسة بوت بنت الآنسة «شاتل»، وكانت «بوت» زوجة للورد «هدفورت» أما «شاتل»، فلم تكن سلخت من عمرها ثمانية عشر ربيعًا، ولما نُبهت الجريدة إلى ذلك ذكرت فى عدد لاحق أنها أخطأت خطأ ظاهرًا... وأن المعجبين بالآنسة «شاتل» يعرفون أنها سيدة لم تتزوج، ولم تذكر السن، والنشر الجديد، على هذا الوجه الجديد، قدح جديد.

وظفر مارشال هول ظفرًا فذًا، إذ زادت المحكمة التعويض عما طلبته الطالبة نفسها، فجعلته ألفين وخمسمائة من الجنيهات.

لكن هذا النصر الخاطف كلفه كثيرًا.

فلئن كان عذره فى قضية «يارموث» قائمًا، إنه لم يكن ليعذر فى العنف فى قضية «الديلى ميل»، وكان حقد صاحبها أعظم من أن يذر مارشال هول. لأنه قال فيما قال «... بما فيهن الليدى هار مسورث..».

استأنفت الديلى ميل، وإذا بالمضاعفات تتلاحق، إذ قدمت القضية إلى دائرة كان القاضى «ماتيو» عضو اليسار فيها.

ولقد كان يجمل بهذا القاضى الخصم أن يتنحى، لكن القضية كانت قضية «شاتل ضد الديلى ميل» لا قضية «الديلى ميل ضد مارشال هول» فلم يستنكف أن ينظرها.

كان «ماتيو» يعتقد أن أسلوب «مارشال هول» ينبو ويكبو بغير داع، وكانت أسباب الاستئناف فى الواقع موجهة ضد المحامى، فبدت البغضاء من أفواه القضاة، وانطلق ماتيو يتحداه، فواجه التحدى بنظائره، وقذف بنفسه من متعبة إلى متعبة، وبلغ المد أقصى مداه، حين نعت «ماتيو» تعليق «مارشال هول» فى صدد مهلة الأسابيع الثلاثة. بأنه تعليق مؤذ لا أساس له بالمرة.

قال مارشال: بل له أساس.

قال القاضى: كلا....

قال هول: هكذا ظن المحلفون...

.....

قال القاضى: لقد كان إسنادًا معيبًا.

قال هول: هذه إهانة.

.....

ولما ترافع بعده الأستاذ «منتاج لش» جرى على غراره، فتولى كبره «ماتيو» وعاد يقول: لقد كان قولا كاذبًا أن يسند إلى دفاع الجريدة أنها استأجلت ثلاثة أسابيع لهذا الغرض.

قال الأستاذ «لش»: لكن هذا الغرض كان محتملا من جانبهم.

قال «ماتيو»: خير لك أن تكف عن هذا حالا.

وهكذا تساقطت من فم القاضى كلمات أعنف من كلمات من حكم عليه!... حتى ليقول عنها لورد «بيركنهد»، كبير القضاة فيما بعد: «إننى واثق أن محكمة الاستئناف قد ارتكبت فى حكمها جريرة عدم الإنصاف لمارشال هول».

ولما أصدر القضاة الحكم لم يتناهوا عن المنكر فنعتوا أسلوب «مارشال هول» نعوتًا أصابته فى الصميم، فى مهنته وفى سمعته، وفى مستقبل حياته.

وانطلقت شياطين الأقلام من عقالها تسبح فى أنهار الصحف، بالخط العريض، والشرح المستفيض... وما بالك بقضية صحفية خذل فيها خصم الصحف...!.

حقًا إن الصحف القانونية انتقدت القاضى فى عنفه لكن «مارشال هول» راح ضحية الحملة فهجرته الكثرة الغالبة من قضاياه ودارت عليه دائرة السوء بما تحدثه به هذه الدائرة من القضاة. ففكر أن يتحدى - بدوره - «ماتيو» بمنازلته فى دائرته الانتخابية بعد أن يستقيل من مجلس العموم...

نسى هؤلاء القضاة أن الحقائق القضائية ليست حقائق حسابية، بل هى أمور نسبية، تتعلق بأطماع الناس وانحرافاتهم، وأن الخطأ القانونى جاثم فى أصول الوجود الإنسانى كله، منذ أزلّ الشيطان أبوينا عن فهم القانون فذاقا الشجرة، فأخرجهما مما كانا فيه، ودفع بنيهما معهما إلى هذه الدنيا بعضهم لبعض عدو...؟.

فعلام يتشدد القضاة هذا التشدد فيما ظنوه خطأ فى التقدير، أو فى التعبير، من أعظم الرجال الذين اغازوا فى أمتهم بالارتجال، وهم العليمون بمبلغ ما يختلف فى الحقائق القضائية المفكرون، والمفسرون، والمعبرون.

لقد ذهب الحكم الابتدائى فى تأييد مارشال هول إلى أبعد مما طلب! ففيم تلك الثورة من القاضى العجيب فى الاستئناف؟.

إن ذمة المحامى لن تؤدى ما عليها إلا فى جو صالح من الإخلاص والإنصاف والزمالة.

المحامى متكافل مع القاضى فى أداء «الحقيقة القضائية» ومن أجل ذلك فالمحامى «أول قاض فى القضية»، فى حين أن القاضى، «آخر محام فى القضية» لأنه هو الذى يتولى الدفاع عن حكم هو نفسه «عنوان الحقيقة» لا «الحقيقة».

المحامى يترافع للقاضى ليصدر الحكم... والقاضى يترافع للدنيا - بكتابة الأسباب - لتصدق الحكم... وهما زميلان متجاوران، مجلس أحدهما إلى منصة عالية فى هدوء وأمنة واطمئنان، ليحكم دون أن يتكلم، ويقف الثانى مجلجلا بصوته، مجاهدًا بأسلحته كأنه الجندى فى الميدان، فيمثل المحامى «طلاب العدالة» التى تطلب بالقوة والأمانة، ويمثل القاضى «مانح العدالة» التى تمنح بالإنصاف والرزانة، فى قاعة يجتمع فيها الإنسانى والربانى، تسمى دار القضاء..!

وفى هذه القضية كان نصيب المحكمة الابتدائية أعظم من نصيب المحامى، لكن القضاة قست قلوبهم فى الاستئناف، فتركوا المحكمة وأمسكوا المحامى!.

كانت طباع «مارشال هول» طباع رجل مكافح، مندفع، مخلص وهى طباع لعلها لا تصلح لرجل السياسة أو الإدارة أو المجتمعات، لكن فيها من الإخلاص والقوة وإنكار الذات ما يجعله أصلح الناس للمحاماة.

وقف يترافع عن اللورد «رسل» ضد اللادى «سكوت». فقال القاضى «هوكنز» فى صدد واحد من أسئلته: غريب!.. فصاح «هول» إن هذه الملاحظة - لصدورها من ذلك المصدر - لا تغتفر!..

فقال القاضى فى هدوء: لا تغفرها.

وأصر «مارشال هول» على توجيه بعض الأسئلة.

فقال «هوكنز»: إن هذا الأسلوب يراد منه المضارة.

قال «هول»: بل العدالة يا حضرة القاضى.

قال «هوكنز»: بل المضارة.

قال «هول» بصوت عال: العدالة لا المضارة.

كانت الحقيقة عنده أجدر بالاهتمام من قواعد النظام، والعدالة أولى من عمالها بالاحترام، ومن أجل ذلك هابه رجال القضاء وشاع عنه أن المحلفين يحبونه وأن القضاة لا يحبونه، وأنه يحاجج خصومه بما يتجافى مع النصفة، ويسلق القضاة بألسنة حداد، وهو براء من كل ما نسبوا إليه.

إنما المرافعات معارك فيها الكر، والفر، والهجوم فى المواجهة، ومن الجنب، ومن الخلف، فى ميدان لا حدود له سوى الفضيلة، ولقد درج القضاء فى كل مكان، نصب فيه ميزان العدالة، على التجاوز عن فرطات الارتجال، لأنهم عليمون بخاطر الكلام من كثرة ما رأوا وما سمعوا. ومن قلة ما ترافعوا!...

فإذا حوسب المحامى ذلك الحساب العسير على ما ينطق به لقاس كلماته، قياس من يمشى على الصراط خطواته، وإذن لما استطاع المداره المقاويل أن يبينوا، وللبسوا الحق بالباطل، ومردوا على النفاق، تحت هذه السيوف المصلتة على الأعناق، وإذن لبخعت المحاماة نفسها لانهيار دعامتيها وهما البيان والحرية.

كان «ففيانى» سريع الإلقاء كمارشال هول حتى لينعته «هنرى روبير» بأنه «أسرع الخطباء البرلمانيين» بل كانوا يسمونه «البلاغة» فوقف يومًا يترافع أمام محكمة «آلبى» بفرنسا، قبل ذلك ببضع سنين فى ١٧ مارس سنة ١٨٩٤، عن رجل قذف عمدة فاستفتح الكلام عن الاتهام

بأنه «غير عادل ومستبد» فوجه وكيل النيابة إليه جنحة الإهانة، وحكم بإيقافه شهرًا ليصير بعد قليل وزيرًا للعدل فرئيسًا للوزراء!...

ولما ترافع النقيب «كارتييه» فى استئناف حكم الإيقاف، ختم مرافعته بما يجب أن يتدبره القضاة قال «... فإذا اطردت نظرية محكمة «آلبى» فستصبح المرافعة مستحيلة، ولئن حتمتم على المترافعين أن يقيسوا كلماتهم كما يقيس السائرون خطاهم، وأن يزنوا كل لفظة، ويترددوا أمام التفسيرات التى قد تنسب إلى تفكيرهم، إنكم لتخاطرون بأن تخنقوا أروع وثبات الارتجال وتخمدوا جذوة الفصاحة...»

ومن قبل «ففيانى» وقف «إميل أوليفييه» فى صدر الشباب قبل أن يضحى رئيسًا للوزارة الفرنسية وصديقًا للخديوى إسماعيل، وقف يترافع عن الفيلسوف «فاشيرو» صاحب كتاب «الديموقراطية» فرمى الأفوكاتو العمومى بأنه يستعين بالشهوات المثيرة، فطُلب إليه أن يعتذر عن هذه البادرة فأصر بل أضاف «إن شخص النائب المترافع محل احترامى. أما مرافعته فملكى أمزقها إربًا إربًا ومن حقى أن أطأها بقدمى» فأوقف ثلاثة أشهر وقررت محكمة الاستئناف أنه إذا كان من حقه الدفاع فليس من حقه المهاجمة...!

لكن محكمة النقض قررت أنه لا دفاع بغير هجوم...!

* * *

انصرف الناس عن «مارشال هول» إذ ناصبه القضاء العداء، فعمد إلى آلته يبيعها وإلى ماساته يرهنها، وأخذت أفئدة زملائه، بين حب وكاره، تهوى إلى الرجل الكريم النفس فى محنته، حتى أن عميد المحامين ليبعث إليه قضية كبرى عطفا عليه فى مصابه!...

ونزل إيراد مكتبه من أكثر من أربعة آلاف جنيه سنة ١٩٠١ إلى ألفين سنة ١٩٠٢. بل نزل هو إلى أن يرهن دبوسًا من الماس لقاء خمسمائة من الجنيهات فى أغسطس سنة ١٩٠٢.

وحاول زميله «رافس إيزاكس» أن يدخل فى العملية على أن يرد الدبوس إليه فى خلال عام أو يبيعه لحسابه فشكر له صنيعه وأبى.

وفى سنة ١٩٠٤ لم يبلغ دخله ألفين... وفى سنة ١٩٠٥ لم يصل إلى ألف وثمانمائة!.

لكن المحاماة لم تكن يومًا ولن تكون تجارة، فالضيق لا ينسخ مزاياها والنعمة لا تضيف إليها فخارًا.. إنما هى رسالة تتعالى مع المسغبة كما تتجلى مع الرفاهة!.

هى كفاح مستمر يشرح المقاتلون فيه صدرًا بالغمرات. فإذا أصابوا مالا فَنَعامةَ عين! وإلا فإن هذا الرداء الأسود هو رمز التضحيات الأعز! الذى لا يساميه عز!.

والمحامى الحق يهوى المحاماة! ومن عجب أن يثاب المحامون على أفعال يود

الموهوبون منهم لو قدموا أموالهم لمن يتيحون لهم فرصة القيام بها، فى سبيل الكرامة، والكفاح، والاستقلال.

من أجل ذلك لا ينجح الرجل فى مهنته على قدر كفاياته كما ينجح رجال المحاماة... ذلك النجاح الإنسانى لا التجارى، الذى هو السيادة لا الثروة. والتضحية لا الاستغلال.

لم تهن عزمات مارشال هول، بل أخذ يكافح كوامن البغض وظواهره من القضاة، وتجلت مواهبه فى شدته، والمواهب العظمى لا تبرز مثلما تبرز فى المحن.

قال له قاض فى قضية اختلاس كبرى، لقد سمعتك يوم الثلاثاء! إلى متى نسمع مرافعات! فهم به ليجيبه لولا أن نبهه زميل له بقوله: تذكر أنه يجلس هناك. وأننا نجلس هنا!.

مع ذلك لم يجنح إلى السلم ورد بقوله: إننى أظن أنك لم تسمعنى لأنك كنت راغبًا عن سماعى!.

قال القاضى: ليس لك يا مستر «هول» أن تقول ذلك الكلام! - لقد نويت عدوانًا وليس لك الحق فى العدوان...

وعاد «مارشال» فاعتذر وهدأت الزوبعة. بل توشجت الصداقة بين القاضى وبينه فصارا صديقين حميمين.

وفى يوم من أيام سنة ١٩٠٢ وقف الأسد الجريح يترافع فى قضية أحد المسارح خمس ساعات ونصف ساعة، وخرج ظافرًا بتحيات القضاة، محفوفًا بستين من رجال المحاماة، جاءوا يسمعونه ويحيطونه بهالة من الإجلال هى حسبه لترفع اسمه إلى صفوف زعماء المحاماة فى سائر الأجيال!.

وأى تحية لمحام فى أمة من الأمم أن يستمع إليه وهو يترافع ستون من المحامين! وهم المتنافسون أحيانًا، الراسخون فى العلم دوامًا..!!

إنها لبيعة إذا انعقدت لمحام كان أحق الناس بقول ماكسابيتو «المحامى ملك».

وفى سنة ١٩٠٣ نهض يترافع ضد سيدة أمريكية عن رجل كانت قد استسخرته ليوافيها بأسرار زوجها، وكان الزوج قد قضى نحبه فآل إليها ثراؤه، ونبه القاضى «مارشال هول» إلى أن يأخذها باللين، لا بالعنف، وأن يتذكر معاركه السابقة مع خصومه، فلم يكد يلقى بنفسه فى عرض البحر حتى استرد حريته فأطلق شراعه! ولم يسكت عن اتهامها لموكله بالتشهير والتشنيع فحمل عليها حملة صادقة وكسب الدعوى.

ولم تكف الصحف عن طريدتها، فاقتفته حينما ثقفته، فإذا خسر القضية عرفته، فسطرت اسمه فى كمال أحرف الهجاء، وإذا كسب نكرته وأشارت إلى اسمه بالحرف الأول فقالت

م. هول مع شيوع اسم (هول) بين الإنجليز! بل إنها أحيانًا لا تشير إلى اسمه الأول البتة فتقول «مستر هول».

وأخيرًا التقى بواحد من رجال «الديلى ميل» فسأله عن أسباب هذه المؤامرة السافرة، فأجابه لأنك لم تترافع ضد «هارمسورث» وحده يوم ترافعت فى قضية الديلى ميل ولكنك ذكرت اسم زوجه!! قال معاذ الله إنى لم أقصدها بسوء وكتب إلى «هارمسورث» معتذرًا فتلاقيا وتصافيا وكانت نهاية المحنة.

دورة الحظ

لم تكد تنتهى سنة ١٩٠٥ حتى واجه مارشال هول مصايره فى الحياة، مخففًا فى المحاماة باعتبارها مصدرًا لرزقه، وفى نفس العام ماتت أخته التى كانت أحب الناس إليه وأحناهم عليه.

وفى نفس العام دخل الانتخابات فمنى حزبه بهزيمة نكراء أضاعت منه دائرته الانتخابية!

لكن العظائم كفؤها العظماء، والعظيم لا يخرج من المحنة منكسرًا، فخرج «مارشال هول» من محنته وقد صهرته الأهوال، فأظفرته بكنز موفور من التجارب، وخبر طبائع الناس، والقضاة، وقوى الصحافة، وازداد لصناعته حبًا، لأنها زادته عزًا.

ومن المحامين العظام طرازان، طراز تبنيه التجربة وآخر تبنيه الكتب، ويبدو أن بنيان التجارب أقوى من بناية الأسفار والمراجع، فالتجارب وقائع حية فيها من الحياة ومن التطبيق، مالا تحويه الكتب، والعلم المتاح فى غمراتها ليس علم الفروض والنظريات والنصيحة، وإنما هو علم يشارك فيه المتعلم بذات نفسه، إذ يصنع العلم ويحصله معًا.

من أجل ذلك كانت تجارب مارشال هول غذاء قويًا لذاته وكفاياته، وكانت تجارب «الهلباوى» كالتيار الخفى يجرى تحت الثرى فيملأ العيون والآبار، وليس شىء كالفن، اعتمادًا على المواهب لا على الشروحات، فلقد طالما خلق الفن النظريات واستبق الوقائع، وليس كالمحاماة العظيمة فن، لأنها حرب بالجهد وبالفكر، تعتمد على العلوم والفنون جميعًا.

وأخلق بالتجارب العظيمة، أن تبنى الرجال العظماء، فكيف إذا اقترنت بالقوى الخالقة التى تسوق الرجل فينساق تبعًا له الرجال... تلك القوى المسماة بالعبقرية.

أقبلت سنة ١٩٠٦ ودار الحظ دورات مسعدة، وفتح الله عليه بركات من السماء، فتتلألأ اسمه فى الصحف كما جلجل صوته فى المحكمة، وعلا التيار. وفاضت سيول النجاح من كل جانب، وعاد الميزان إلى الاعتدال.

فى نهاية سنة ١٩٠٧ وكل فى قضية الفنان «وود» إذ اتهم بقتل غانية يغشى دارها – وكأنما كانت ناقوسًا قرعه الحظ فى أقطار الجزيرة ليجذب الأنظار والأسماع، إلى أحسن صوت عرفه الإنجليز للدفاع، فبرئ المتهم، وفى خارج المحكمة آلاف من أهل لندن.

وإن حقيبته لتسرق يومًا وهو على سفر، وفيها ما فيها من نفائسه وأعلاقه، فرجع إلى قومه غضبان أسفًا، لكنها أعيدت بعد أيام لا تنقص حبة، ومعها رسالة من السارق، أنه لو عرف صاحبها ما سرقها!!.

وذاع فى المجتمع أنه المحامى الأكبر فى قضايا القتل، حتى ليوجس رجل من رجال المال خيفة إذ نصح بتوكيله ويقول: لو وكلته لحسبنى الناس قاتلا.

وفى سنة ١٩٠٩ ترافع عن «إدوارد لورنس» مرافعة نعتها بأنها أعظم نصر ظفر به.

وفى سنة ١٩١٠ ترافع عن الدكتور «كريبن» الذى سمم زوجته فأعدم.

ولم يكد العام ينصرم حتى اشتملت التعيينات القضائية على ألمع الأسماء مثل «منتاج لش» الذى لم يهب يوم هددها القاضى «ماتيو» «ورافس إيزاكس» صاحبه يوم رهن الدبوس. ولم يعين «مارشال هول» فى القضاء، فليس ينسى ما كان بينه وبين القضاء.

وضاق نطاق الاختيار عند المتقاضين...

ودارت عجلة الحظ من جديد.

وجلس على كراسى القضاء أصدقاء قدماء باسمة ثغورهم. فشاع الابتسام فى الأفق.

ودخل انتخابًا فرعيًا للبرلمان فى أول العام – خرج منه بكرسى فى مجلس العموم.

واستفاض الابتسام، فى نهاية العام، ودخل الانتخابات العمومية وظفر بكرسيه من جديد.

ولقد طالما كانت الحظوظ الحسان، وما تزال، كالجوارى الحسان، جوارى فى موكب المنتصر، تلاحقه، ولو على رغمه، عوامل الظفر.

فإذا عبست الدنيا تولت عن الرجال فأسلمتهم الجدود العواثر إلى جدود عواثر، وجروا إلى حتوفهم، كأنما يهرعون إليها عن عمد وهم لا يفقهون...!

وفى مارس سنة ١٩١٢ ترافع فى قضية التسميم عن «سيدون».

وأعلنت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وهو فى السادسة والخمسين، فلم يبرز للقتال وزادت الحلقة ضيقًا على الموكلين، فزاد رزقه سعة، وآلت إليه قضايا زملائه المجندين فكان يبعث إليهم بنصف الأتعاب.

وهى ظاهرة يقدرها رجال المحاماة - كما قدرها «لورد بركنهد» وهو يتحدث عن إرساله نصيبه فى قضاياه.

وفى سنة ١٩١٨ قدم إليه موكل قديم «شيك» بأتعاب ليس كالذى قدمه له بأتعاب منذ ثلاثين عامًا، تمامًا (سنة ١٨٨٨) فالشيك القديم كان بسبعة جنيهات. والشيك الحديث كان بسبعمائة... وألف من الجنيهات!.

وفى إبان الحرب ترافع عن السفاح يوسف سمث. الذى تزوج من ثلاث زوجات. وهو متزوج - وأودى بهن بطريقة لم تكتشف، فلفظن أنفاسهن الأخيرة فى (البانيو) فى المساكن الذى كان يعدها لهن، ولم يبد عليهن آثار!! ولم تعرف الجرائم إلا بعد ثلاث سنوات.

شغلت المحكمة أيامًا بالقضية وهى فى حيرة. فليس ثمة أدلة مادية، أما القرائن فمهلكة! فاستهل مارشال مرافعته بعبارات تملأ نفوس الإنجليز زهوًا، وقلوب القضاة سموًا. قال «فى هذه الآونة التى تقضى فيها الملايين من زهرات الشباب الإنجليز نحبهم فى الميادين، أليس مما يرفع هاماتنا فخارًا أن يكرس القضاء هذا المجهود القانونى والقضائى الضخم يومًا بعد يوم لتحقيق وقائع هذه القضية الصامتة. للتحقق مما إذا كانت روح رجل واحد تستحق أن تزهق، إنها لمفخرة رائعة لنظامنا القضائى!».

واختتم مرافعته بقوله: «كونوا منصفين لأنفسكم وللمتهم! كونوا عدولا بالنسبة للعدالة نفسها قبل أن تحكموا فى مصير هذا الإنسان فتقولوا إن هذه التهمة الهائلة قد ثبتت».

وحتى هذه السن كانت تتملكه العاطفة فتنطلق انفعالاته وأحاسيسه فى عباراته: قال مرة للقضاة من أجل فتاة «إذا أيدتم هذا الحكم كان ذلك خروجًا عن الإنسانية».

ونزل الحكم من ٤ شهور أشغال شاقة إلى غرامة ١٠ جنيهات.

كان يترافع فى سنة ١٩٢٠ عن ضابط قتل خليلته وكان كما قال «لا يجد شيئًا يقوله فى مواجهة محلفين كونوا أفكارهم ضد موكله» وفيما هو يسعى بين غرفات المحكمة اعترض بصره رهط من السيدات جئن يشهدن المحاكمة، فتفتحت له أسرار البلاغة، وظل يترافع ساعتين طويلتين ودموع المحلفين تنهمر، وهو يعرض غرام القاتل بالقتيل بانيًا دفاعه على جنون المتهم - واستفتح المرافعة بالانقضاض المدمر على «اللائى قدمن إلى القاعة متسربلات بالطرز الغالية، حاليات الجيد بالأعلاق، يتفرجن يومًا بعد يوم على مأساة قلب محطم، يتلمس إنقاذ روحه من براثن الجلاد!»

ثم يقول «إن النفس لترثى للأنوثة فى بلد هذه نساؤه!...»

المحامى الفنان

وكل مارشال هول فى بواكير حياته بخمسين جنيها فى قضية قتل فطار فرحًا يباهى زميلا له بتلك الأتعاب، لكن زميله قال: «إنى لا أقبلها بمائة! إنى أكره الجنايات» فأجابه «أريد أن أتخصص فى فن الموت والحياة والسجن والحرية. إننى أحب أن أتداول الوقائع لا النظريات لست أعرف كثيرًا من القانون ولكننى أستطيع أن أدرس طبائع الرجال والنساء».

اختار هذا الفن من المحاماة وهو يعرف أنه أشد فنونها إرهاقًا وعنتًا فالمحامى المدنى أرستقراطى مستجم، لا يكافح فيسيل دمه أو دم الخصم، أو ترفضّ دموعه، أو يتفصد عرقًا فيغير ملابسه فى غرفة من غرفات المحكمة، مثل «مارشال هول» فى إنجلترا أو حسن علّام فى مصر، ولا يصيح حتى يتوقف صوته عن أن يسمع مثل «لابورى» وهو يرد على النائب العمومى فى قضية «زولا»، أو تعصف به العواصف فيخسر نصف عمره، من فجاءت الجلسة ككثير من المحامين الجنائيين، أو يعمل بالقطعة، جنحة جنحة، وجناية جناية.

إنما يسرد المحامى المدنى فى هدوء وطمأنينة، ويلبس ملابس منشّاة يخلعها كما لبسها، وتصله أتعابه فى نهاية العام من الموكل الدائم، أو فى أعقاب القضية مما أغنى به موكله.

موكلوه وجهاء أو أغنياء، فإن لم يكونوا ثراة أو سراة كانوا طلاب مال أو جاه.

أما المحامى الجنائى، فلا يطلب سوى الحرية أو الكرامة.

فأما من يجيئونه من الوجهاء والأغنياء فيجيئونه يوم يجيئونه تعساء بؤساء.

هو كلاعب السيف فى الحلبة، أما المحامى المدنى فكلاعب الورق، على المائدة، الجنائى كالجراح، أما المدنى فكالطبيب الباطنى، وهو كالبحر فى أحشائه الدر، وفى أمواجه العواصف والنذر، أما المدنى فكالبحيرة أو كالجدول أو كالنهر.

قضى مارشال هول حياته كلها فنانًا.. كانت الحياة على لسانه محور الدفاع وغايته. فكانت ترهقه تبعاته ومن أجل ذلك لم يكن التعبير الانجليزى (He fought a Case) حارب فى قضية «أو الفرنسى» (attauquer en justice) «يقاتل فى المحكمة» ليجد مصداقه فى حياة محام أو أسلوبه مثلما وجد فى حياة مارشال هول وفى أسلوبه.

كان يعالج النيابة والمحكمة والمحلفين والشهود جميعًا، واحدًا إثر واحد، فى كل فكرة، وكل خاطرة، وبكل ما ملكت قواه. كأنما ينازل فريقًا من اللاعبين ليجليهم عن مراكزهم شبرًا شبرًا، بضربة وراء ضربة، مع الجهد المستمر والانتباه المظفر.

والمحامى الإنجليزى يتولى إدارة القضية كلها فترة من الزمن عند الاستجواب. فهو يسأل الشهود ويستجوبهم كيف يشاء، ولا يقنع بمجرد شهادتهم كالنظام الفرنسى أو المصرى... حتى ليستخرج القاتل من القفص ليستجربه كشاهد لا كمتهم!...

وكانت قوة الذهن وسرعة البديهة وطبيعة الهجوم التى ركبت فى طباعه لا تدع الشاهد إلا إذا لم تذر منه شيئًا!... فكان الشهود يرتاعون من ذكر اسمه.. فكيف بهم وهم بين أصابعه. بين مخالب الأسد!.

بلغ مارشال هول أوجه فى قضية (سدون) يوم اختتم معاركه الهائلة فى تلك القضية بهذه الكلمة العظيمة «لقد حدثنا العلماء الفحول الذين سمعناهم فى هذه القاعة بكثير من عجائب العلم ومن النتائج التى يمكن الوصول إليها به، لكن شيئًا لم يستطع علماء العالم كافة أن يوجدوه، ولن يستطيعوا أن يكتشفوه، مهما بحثوا، ومهما درسوا... وهو: كيف نعوض هذه الشعلة الصغيرة المسماة بالحياة إذا أضعناها!.

إن على عاتقكم مسئولية حياة هذا الإنسان، فإذا قضيتم ضده فإن هذه الشعلة الحية ستخبو، ولم يعرف العالم حتى الآن علمًا يستطيع أن يرجعها...».

ولم يكد يجلس حتى جاءته من كرسى الاتهام الرسالة التالية «عزيزى مارشال هول.. إنها مرافعة عظيمة حقًا - وهى أعظم ما سمعنا من عظائمك».

ووقف النائب العمومى - وكان «رافس إيزاكس» ليعقب على مرافعته وختم بقوله: إذا استيقنتم أنه لا مراء فى ارتكاب المتهم للجريمة وساورتكم الريب فى أمر المتهمة فواجبكم أن تبرئوها.

وسنرى لماذا قال ذلك... ولماذا برئت.

فلقد كتب إليه فى الغداة يقول: «عزيزى مارشال هول».

بصراحة، وبإخلاص، لا كنائب عام، ولكن كصديق قديم، دعنى أقل لك كم راعنى دفاعك فى قضية «سدون». إن الدقائق الخمس التى وقفتها على المتهمة أحدثت أروع الأثر. وفى رأيى أنها صنعت كثيرًا وإن لم تصنع كل شىء. لبراءتها.

... لقد كان على عاتقك عبء فادح... إنى لا أريد أن أناقش القضية ولكنى أريد أن أقول أمامك ما أقوله من ورائك، لقد بذلت مجهودًا جبارًا، فى أسلوب عظيم من تقاليد مهنتنا العظيمة... ولقد سطر هذا الكتاب ليكون تقديرًا من خصم راعه عمل عظيم قام به العامل فى نبالة وجلال، وتعبيرًا من صديق طالما لقى منك تأييدًا كريمًا بل أكثر من كريم.

لقد قرت عيني لانصرافي قبل صدور الحكم، أتمنى أن تكون صحة زوجتكم فى تحسن، وأرجو أن تذكرنى لها...

صديقك المخلص للأبد.

«رافس إيزاكس»

تلك كانت آثار مرافعته فى المحكمة، وفى المحلفين، وفى النيابة العمومية، أما فى الجمهور فحسبنا شاهدًا أن تشرع المحكمة فى نظر قضية «جرينوود» المتهم بالقتل بالسم والبوليس يحرس المتهم من سخط الجماهير، لكن المحاكمة لم تكد تصل إلى نهايتها، حتى كانت الحراسة الخاصة بالمتهم لازمة لشهود الإثبات.

وظل فى مغرب حياته كما نشأ فى مطلع شبابه، هاويًا عظيما للحلى وفنانًا... كان يتدارس مع زميل له قضية طبيب كبير فى حضرة الطبيب فترك موضوع القضية وأقبل على رميله يقول له: ما رأيك فى هذه الياقوتة؟ وتداولاها، ثم تبادلاها، والطبيب فى دهش مما يرى. ومن المحامى «الجواهرجى!».

لقد شهد يومًا فى معرض أحد المحال عشرات من فصوص الماس قدر لكل منها ثمن قليل تستوى كلها فيه، فدخل يطلب بعضًا منها بالثمن حسب نسبته إلى المعروض جميعًا، فأبى الجوهرى لأنها كانت أغلى ماسات المجموعة وهو يبيع للجمهور لا «للجوهريين» العليمين بالخبايا من أمثاله.

* * *

كان سريع الإلقاء حتى اعتبروه نكبة لكتاب الاختزال..! ألقى ٣٧,٠٠٠ كلمة فى أربع ساعات فى قضية «سدون» أى أكثر من ١٥٠ كلمة فى الدقيقة... لمدة ٢٤٠ دقيقة متصلة! فى حين تكلم النائب العمومى ٢٩٠٠٠ كلمة فى نفس المدة!

ولم يكن يقيد نفسه بخطة مقررة، بل كان يغير خططه تغييرًا تامًا وفقًا لمفاجآت الجلسات. وتلك خطة الهلباوى وهنرى روبير وزعماء الارتجال. بل خطة عبقرى الخطط فى التاريخ - مع الفوارق بين معارك الجدال ومعارك القتال - نعنى نابليون إذ يقول: «ويل للقائد الذى يذهب إلى الميدان وقد ربط نفسه بخطة لا يغيرها تبعًا للظروف» أو كما كان النقيب الفرنسى «بتولو» فى عهد مارشال هول يقول: «المحامى كقائد الجيش لا يغفر له أن يدخل المعركة دون أن يكون قد رسم خطته. كل ما هنالك أنه يستطيع أن يغير هذه الخطة فى كل لحظة - فالمرافعة فى الظهر ليست كالمرافعة فى المساء!... كما أن عليه أن يعرف الفقه والقضاء، على ألا يستعبده الفقه والقضاء، بل هو يقاومهما إذا خالفا القانون. ولقد طالما قلت لموكلى إنك ستخسر القضية أمام القاضى لكنى أراها صالحة فسأقبلها. ومع هذا لم أكن دائمًا أخسر».

إنما يحكم المحامى العظيم دراسة دعواه، وارتجاله كفيل بوضع القوى اللازمة فى المنطقة أو فى اللحظة الحاسمة.

لقد كتب لابورى مرافعته عن «إميل زولا» قبل الجلسة وهو يظن أن المحكمة لن تسمع الشهود، ولكنها فاجأته بسماعهم، فظل يسمعهم خمس عشرة جلسة، وهو يستعين بالحمام قبل أن ينام، ليغسل فى الليل متاعب النهار، ثم، كما قال «جاء يوم المرافعة فألفيت أمامى ملف القضية ولا فائدة لى فيه ولكن وسائلى كانت بين يدى».

قذف «لابورى» بنفسه فى معركة لم يتوقعها، فجاء ارتجاله بالأعاجيب.

كان الارتجال ديدن نظيره الإنجليزى، بل كانت فى الإنجليزى صفات جندى العصابات، المرهف الحس، الحديد البصر، الجسور المبتكر، يقاتل بالغريزة لا بقواعد الحرب، ومع ذلك يظفر بالجندى المدرب، يمضى كما يقول بارتو عن زعيم الثورة الفرنسية المحامى دنتون «... غير منتش بحميا الغرور الأدبى. لا هم له إلا أن يقنع. يحتقر الصياح الذى لا معنى وراءه والحماسة المصطنعة والعبارات الخاوية، فيه من الغريزة أكثر مما فيه من الطريقة... رجل عمل يسلك لغايته كل السبل، بما فيها من تنويع وابتكار مفاجىء ملىء بالكنوز...».

فإذا عثرت عينه الفاحصة - عين الصياد القديم - على محلف حليف لوجهة نظره، راح يستميله ليتخذ منه نقطة ارتكاز، ليصب الباقى من قواه على الباقين من المحلفين.

وتلك كانت طريقة لاشو مع تعديل بسيط: إذ يكشف لنفسه أقل المحلفين فطانة فيترافع له... ويترافع له... حتى إذا فهم كانوا جميعًا قد فهموا...

كتبت إحدى الصحف عن «مارشال هول» وهو فى الثلاثين «لقد أقبل الناس على هذا المحامى الشاب الذى حبته الطبيعة خير عطاياها: روعة تمثل، ولطف محضر، وجهارة صوت، وبلاغة، توحى جميعًا بأن له مستقبلا غير عادى من النجاح» أو كما عبر عن أسلوبه فى ذلك الحين واحد من زملائه بقوله «هذه المرافعة العنيفة العاطفية الخطابية إلى حد عجيب التى استمعنا لها الآن».

فلما بلغ الأوج وصالح الديلى ميل وصف فيها الكاتب الكبير «هول كين» طريقته فى الدفاع والاستجواب وتصوير الوقائع وتمثيل الحقائق بأنها «تناجى العقل والقلب جميعًا مع الاندفاع العاطفى الذى يؤذى فى بعض الأحايين لكنه لا ينحدر إلى الشخصيات».

كانت بلاغته وحيويته، وميله إلى (الدراما) تجعل أسمج القضايا قضايا مشهورة، والمرافعة العظيمة تجعل القضية عظيمة.

قال الرئيس أوديبير «... المرافعة القوية هى التى تظهر فيها آثار الروح فتعرض بسمو

وبقوة، وبطريقة غير مألوفة للأسماع، آراء لو عرضت فى أسلوب آخر لكانت تافهة...».

فإذا عرضت له قضية ذات وجهين، وجه فيه يسر ووجه فيه مأساة، قذف بنفسه فى تيار «الدرام» ليقوم بعمل عظيم لحساب موكليه...

اتفق يومًا مع زميل فى قضية عادية على حصر الخصومة فى حدودها، واستأذنه زميله فى أن يذهب ليترافع فى قضية أخرى. فلما رجع وجد مارشال هول قد عبر كل الحدود...! ولم يعد ممكنًا أن يعود! فخلاه يحلق فى سماوات البلاغة، وفى أوضاع الدرام... وأسعفته المقادير.. وكسب الدعوى.

كانت مرافعاته فنًا خالصًا تنسكب فيه روحه، وتتجلى انفعالاته، فيستحيل قطعة من الوقائع التى عاش فيها موكلوه، تسيل الدموع على خديه كما سالت فى قضية «مارى هرمان»! ويسقط المسدس من بين يديه على بلاط المحكمة كما سقط على بلاط فندق «سافوى» فى قضية «مرجريت فـ...» ويسدد السلاح إلى صدور القضاة فى قضية «لورنس» ويحطم الكأس التى يشرب منها فى قاعة المحكمة، ليرى المحلفين مبلغ ما فى الزجاج المحطم من خطر لافزع الخاطر، فى قضية فتى قتل صديقه بسكين إذ قذفه بزجاجة، فيظفر للقاتل بثلاث سنين بدلا من الإعدام!

بل هو يقول عن نفسه «إننى والممثل صنوان، غير أنى لا أستعين بمناظر ولا كلمات محضرة ولا بأستار، وإنما أخلق من الحقائق والأحلام فى حياة بعض الناس جوًا صالحا - لأن هذه هى المحاماة».

* * *

لقد بدأ حياته فى المحاماة فى العام الذى ختم فيه «لاشو» حياته فى الدنيا، وكان يرهف حسه لاستغلال كل بادرة ويمتزج هو بأشخاص قضيته كأفذاذ الممثلين، يندمجون فى الدور الذى يمثلونه، فيحيا بهم إذ يحيون فيه.

وقف يترافع يومًا عن فتى قتل أباه وكان رئيس الجلسة صديقًا شخصيًا له. وكان الرئيس قد قال له: هذا متهم سيشنق على رغمك؟ قال «لاشو»! لست متأكدًا!... وتراهنا.

ترافع «لاشو» ساعات وساعات، دون أن يلمح على وجوه المحلفين إلا الصدود، لكنه سمع فجأة أجراس الكنائس تدعو لصلاة منتصف الليل فى ليلة عيد الميلاد فأملى قليلا، وقد تملكه الانفعال، فواتته العبقرية بكلمات الساعة، وراح يقول: فى هذه الليلة السعيدة، فى هذه اللحظة المقدسة، ولد لنا إلـه المغفرة، إلـه السلام إلـه الرحمة، إنه عيسى فى المهد يصيح بكم أن ترحموا... اذكروا أن الرحمة العالية ليست بذات حدود، ولا تكونوا أشد قسوة من الله نفسه».

وظفر لموكله بالظروف المخففة... فلم يعدم... وظفر بالرهان...

وفى ذات يرم أدلت أم القتيل بشهادتها فأجرت من ذوب نفسها تيارًا من الأسى فى أنفس المحلفين وران الألم على القلوب وسالت العيون بالدموع، وكان «لاشو» يحس مقدار ما يتأرجح من جراء هذه الشهادة مصير رقبة المتهم، فمد رأسه ليسمع، وحنى جذعه على المنصة ليملأ أذنه، وهمّ من مكانه، فهوت إلى الأرض «مجموعة لقانون العقوبات» كانت تحت ذراعه، فتهامس القضاة وتساءلوا، وطرقت الجلبة آذان المحلفين، فتساءلوا، وتساءل الناس، ونسوا تأثير الشاهدة..

كان فرط الإخلاص، خاصة من خصائص «مارشال هرل» فهو يدلى بكل ما يستطيعه لصالح موكليه، بل هو قد يقول - إذا دعت الدواعى - إن معلوماته الخصوصية تؤيد وجهة نظر موكليه.

فإذا وكله موكل لم يوكل «الأستاذ» وإنما استولى على «الرجل».

حقا إن المرافعة لا يقدر لها النجاح مثلما يقدر لها عند الاقتناع، فكيف إذا اعتنق المحامى عقيدة موكله... لكن ثمة فيصلا بين الاقتناع والاندفاع يجب أن يحسب المحامى حسابه، ليحتفظ باتزانه واستقلاله، والقدر القضائى المسلم به له فى مقامه.

ولم يكن يكف عن خدمة موكله بعد انتهاء الحكم فكان يبذل قصاراه بالسعى لدى شتى الجهات.

ومن قبله كان أستاذ الجيل «لاشو» لا يتخلى عن المتهم بعد صدور الحكم. بل هو يتابع جهوده فى كل مكان حتى ليلاحق الإمبراطور فى رحلاته. فلما حكم بالإعدام على الدكتور «لابوميريه» إذ دس السم لعشيقته، جرى المحامى العظيم إلى «كومبينى» فى إثر صديقه نابليون الثالث، فقبل رجاءه، ودعا وزير العدل «باروش» لإصدار مرسوم بالعفو، فنبهه على أن الناس قد يقولون «إن العفو منح القاتل لأنه طبيب ولو كان من طبقة العامة لما أخلصه صاحب الجلالة بعفوه» فلم يعف عنه...

❁ ❁ ❁

وفى يناير سنة ١٩٢٦ كان مارشال هول يترافع فى قضية كبرى عن متهمين بإخفاء سيارات فترك الجلسات بعد أن بدأت المحاكمة ليلزم فراشه فلا يبرحه، وكأنما شاءت العناية أن تربط ماضيه بحاضره، وأن يتشابه العهد فى منتهاه بمبدئه.

كانت أول قضية وكل فيها قضية إخفاء وكانت الأخيرة قضية إخفاء بعد ثلاثة وأربعين عاما.

وفى ٢٣ فبراير سنة ١٩٢٦ انطفأت هذه الشعلة، التى ستبقى فخارًا للمحاماة فى العالم وومضة من ومضات البلاغة الخطابية فى تاريخ الإنجليز.

انطفأ المصباح والدنيا تستنير به، وفاضت روح الجندى وهو فى شِكته.

فى محكمة الجنايات
قضية مرجريت ف...

لعل خصائص مارشال هول كمحام قد اجتمعت فى قضية «مرجريت ف....» ومن حقها علينا أن نقدمها على غيرها لذلك، ولما تثيره فى المصريين من شئون وشجون. فلقد اندفع مارشال هول فى مرافعته إلى عبارات جارحة احتج عليها النقيب المصرى سنة ١٩٢٣، واعتذر مارشال بأنه لا يعنى مصر، ولا الشرق، وإنما يقصد المجنى عليه.

كان المرحوم ع... ف... ابن المرحوم ع... باشا ف... ومعه زوجه الباريسية الحسناء مرجريت ف... وسكرتيره س... ع... أفندى يقيمون بفندق سافوى فى لندن ليلة ١٠ يوليو سنة ١٩٢٣ – وكان الفتى فى الثانية والعشرين من عمره، يحمل فى لندن اسم «البرنس فهمى بك»! تعرف على السيدة «مرجريت لوران» بباريس فدعاها إلى مصر حيث بنى بها فى ديسمبر سنة ١٩٢٢، ولم يكد يتم القران حتى تنافر الشخصان فتنابذ الزوجان.

ولما جلسا يتعشيان فى مساء ٩ يوليو سنة ١٩٢٣ قصد رئيس فرقة الموسيقى يسألها أى الأدوار يعزف لها؟ فأجابت:

شكرًا. إن زوجى سيقتلنى فى خلال أربع وعشرين ساعة. فلست مشوقة إلى الألحان...!

وفى الثانية صباحًا كانت لندن تئن تحت عاصفة هوجاء، وكانت تجتاح فندق سافوى عاصفة أخرى، حين سمع أحد الحمالين طلقات ثلاثًا متتالية، فراح يتقصى فإذا «البرنس» فى مباذله، مضرجا بدمه، ملقى على الثرى، يسيل النزيف من فمه، وإلى جواره مسدس ألقت به زوجه، وقالت لمدير الفندق:

ماذا سيصنعون بى؟ يا سيدى لقد تزوجته منذ ٦ شهور وشد ما قاسيت!!!.

وقالت للطبيب «لقد سحبت الزناد ثلاث مرات...».

وكان معلوما أنها تحمل مسدسًا لأنها تحمل حلاها فى حقائبها.

لكن لندن ليست كباريس فى هتافها للجرائم العاطفية: فكان مصير المتهمة مقررًا... إلى المشنقة.

لم يتخل عنها أصدقاؤها... فبدأت الاستعلامات فى شتى بقاع باريس لجميع التحريات عن

سمعة القتيل، وجيء باثنين من الشبان بقيا رهن أمر الدفاع ليشهدا بحقيقة أخلاق «الأمير».

وعهد إلى مارشال هول فى الدفاع.

وفى ١٠ سبتمبر نظرت القضية برياسة قاض كان من قبل محاميًا يساعد مارشال هول فى القضايا.

وحضر الأستاذان عبد الفتاح[١] رجائى وعبد الرحمن البيلى[٢] من المحامين المصريين يراقبان الدفاع عن سمعة القتيل.

وسمع س... ع. فى اليوم الأول، وقدم الدفاع للمحكمة صحيفة مصرية تحوى رسمًا كاريكاتوريًا كتبت تحته: النور، وظل النور وخيال الظل.

The light, the shadow of the light, and the shadow of the shadow of the light.

يراد به ع.. ف.. وسكرتيره س.. ع.. وسكرتير س.. ع..!

استجوب مارشال هول س.. ع.. أربع ساعات كاملة ليستخلص منه الحقيقة عن حياة القاتلة فى كنف القتيل، وإليك مثلا:

س: هل قلت للبوليس إنك حاولت أن تثنيه عن البناء بها؟

ج: نعم.

س: هل قلت إنه رجل شرقى مضطرم العاطفة.

ج: نعم.

س: هل كان مولعًا بها عندئذ؟

ج: نعم كان مشغوفًا بها حقًا.

ثم تلا «مارشال هول» خطابا يتوسل به القتيل إليها لتقدم إلى مصر جا فيه: ... إنك تبدين لى محفوفة بهالة من الأحلام! يا شعلة حياتى، إننى أراك وعلى مفرقك إكليل قد احتفظت به لأقدمه إليك يوم تطأ أقدامك أرض أجدادى الفاتنة...

وإنتقل إلى حياتها الزوجية فتلا كتابًا منه إلى أختها عقب الزواج جاء فيه: «لقد أخذت بسبيل تعليمها.. فلم أتناول معها أمس غداء، ولا عشاء، وتركتها فى المسرح، فلعل ذلك يلزمها أن تخضع لرغباتى. إن على الرجل أن يتصرف مع النساء بحزم وقسوة».

وبين الدفاع كيف كان هذا الزوج المليونير يركب زوجته الترام...

وإنتقل من التعذيب النفسانى إلى التعذيب الجثمانى فراح يسأل س.. ع...

---

(١) نقيب المحامين فى بنى سويف فيما بعد.

(٢) وزير المالية فى الأربعينات فيما بعد.

س: هل وقع فى ٢١ فبراير منظر عاصف؟ أو أقسم على القرآن أن يقتلها؟.
ج : لا.
س:هل تعرف أنها كانت تخاف على حياتها؟.
ج : لم أعرف مطلقًا.
س: هل أخذها معه على ظهر (اليخت الخاص) إلى الأقصر فى ٢٣ فبراير، على ميعدة عشرة أيام من القاهرة.

ج : نعم.
س: أكان ستة من العبيد فى خدمة اليخت؟
ج : نعم.
س: أتظن أنه شرع من تلك اللحظة يعاملها بقسوة؟.
ج : لا أستطيع أن أقول قسوة - ولقد كان يغلظ بعض الغلظة.
س: ألم تك مدام فهمى فى سنة ١٩٢٣ تغاير كل المغايرة مدام لوران سنة ١٩٢٢.
ج : ربما.
س: ألم تتحول من فتاة مرحة، باسمة الثغر، حسنة اللقيا، إلى سيدة كسيرة الفؤاد مهمومة؟.
ج : كانا دائمًا على خلاف.
س: هل قالت إنك وف.. كنتما ضدها، كانت سيدة بمفردها ضد رجلين معًا؟.
ج : نعم.

وحرص الدفاع على ألايستطرد فى البحث فى أخلاق المجنى عليه، فتلك هجمه يتصدى لها الاتهام بهجمة مضادة عن أخلاق المتهمة ... ومن الحكمه السكوت ...

سهد الطبيب الذى أسعف القتيل أنها ذكرت له سبب شجارهما، وأنها كانت تشكو آلامًا مبرحة فعزمت أن تجرى عملية جراحية فى باريس، ولم يك معها مال، فمنعها بل جذبها بقوة وعنفها بقسوة. فكانت فى فزع مستمر وأخرجت المسدس لتفرغ طلقاته، فأفرغت واحدة أطلقتها من النافذة لكنها وهى تصنع ذلك شهدته مقبلا نحوها، فسددت إليه المسدس لتمنعه أن يهجم عليها، فلم تدر إلا وقذائفه تنطلق... وقرر الطبيب أنها أفصحت له عما قاسته بقولها: يا سيدى لقد تزوجت منذ ستة شهور وشد ما قاسيت...

وبدأ المحلفون يستشعرون هول ما عانت. فقد كان فيهم ثلاث نسوة... وخلا الجو لمارشال هول وهو يترافع فى عاصمة العالم الغربى (لندن) عن متهمة من مدينة النور (باريس) فلم يحسب للشرق حسابًا،

وافتتح الدفاع، فى اليوم الثالث، فتحدث عن زهو خارق للعادة يتملك الشرقى إذ يجد فى

حوزته سيدة غريبة! وتحدث عن قسوة المتهم - الشرقى - إذ يتطلب من زوجته طاعته كالعبودية، ويعاملها بقسوة مستمرة حطمت أعصابها، وأضاف أنها تلقت فى فندق سافوى خطابا غفلا من التوقيع ينصحها فيه مرسله «ألا تعود إلى مصر مخافة أن تنجلى الرحلة عن حادث. كسم فى زهرة أو سلاح لا يرى ولا يسمع! استمرى فى باريس مع هؤلاء الذين يحبونك وسيحمونك».

قال الدفاع «كان يروق ذلك الزوج أن يطلق النار فوق رأسها لترويعها، ويقيم عبيدًا لمراقبتها ومنهم عبد ضخم الجثة اسمه.. كوستا Costa!!.

وفى ليلة الحادثة لوح لها بالمال اللازم للجراحة التى كانت بسبيلها، ثم أباه عليها لتخضع لرغبته غير الطبيعية - وفى نفس الليلة هددها بالقتل! بل أخذ بخناقها وأمسك برقبتها!... فحسبت أنه سوف يقتلها».

واستجوبت المتهمة فقررت أنه فى شهر يناير أقسم على القرآن أنه قاتلها وأنها ستموت بيده وأنها كتبت إلى محاميها فى باريس تقول إن ذراعيها يحملان «آثار ظرف (!) زوجها».

وقررت أنها لم تكن أطلقت قذيفه واحدة! حتى ليلة الحادثة. وأن المسدس الذى استعملته قدمه القتيل إليها مشحونًا صالحًا للانطلاق، وأنها شهدته يفرغ مسدساته بفتح الخزانة وإخراج الخرطوش، فحاولت إخراج الخرطوش بعد أن خنقها، فلم تستطع، فعالجت ذلك بتحريك المسدس فى النافذة فانطلقت منه قذيفة فى الفضاء، ظنت بعدها أنه لم يعد فيه قذائف قابلة للانطلاق - لكن المسدس كان من المسدسات التى تملأ فيها الماسورة من نفسها عقب انطلاق القذيفة.

وأضافت أنها لا تعرف شيئًا عن الأسلحة النارية.

سألها مارشال هول: ألم تكونى تشعرين أنك ستكونين آمنة السرب فى لندن!

يريد أن يثير الاعتداد فى أنفس المحلفين بالطمأنينة التى تبسطها مدينتهم للساكنين فيها.

واستطردت تروى الوقائع حتى خر صريعًا فجئت إلى جواره، تقول يا عزيزى.. لا شىء... تكلم... كلمنى...

وتولت المحامية الباريسية الشابة.. «أوديت سيمون» ترجمة أقوالها إلى الإنجليزية...

وفاجأ مارشال هول الاتهام بمستندين جليلى الخطر:

الأول: برقية أبرقت بها إلى باريس فى ٩ يوليو تنبىء أنها قادمة إليها.

والثانى: وصيتها لمحاميها بمصر: (أنا مارى... أتهم بصراحة فى حالة موتى بعنف أو بأى سبب، ع... بك بأنه شارك فى اختفائى! لقد أقسم على الإنجيل أو القرآن فى الساعة الثالثة

من مساء أمس ٢١ يناير سنة ١٩٢٣... أنه سيثأر لنفسه غدًا أو بعد ٨ أيام أو شهر أو ثلاثة أشهر وأنني يجب أن أختفي بفعله - ولم يكن لهذا القسم مبرر من غيرة أو سوء سلوك أو نزاع، إني ألتمس واستحق العدالة لبنتي وأسرتي).

وانطلق «مارشال هول» يقول ويقول... يتطور ويتطور، حتى تدهور، إلى حيث قال «لقد ارتكبت هذه السيدة الخطيئة الكبرى وتزوجت رجلا شرقيًا، إني أجسر على القول بأن الحضارة المصرية كانت، أو قد تكون، إحدى الحضارات القديمة العظيمة، ولكنك إذا انتزعت الغشاء الخارجي، من حضارة الشرقي، تجد تحته الرجل الشرقي الحقيقي».

وراح يصف كيف دلى القتيل قاتلته بالغرور فأدخلها في «جنته الشرقية» والعبد الضخم على رأسها. والقلق يسيطر على نفسها، وهو يضيفها إلى مملكته، وإلى الحريم التركي، وتلك أشياء لا تفهمها، ولا تستطيع أن تتعامل معها».

واستطرد بصوته المسرحي ونبراته التمثيلية يرد على كلمة النائب العمومي قوله إن المتهمة كان عليها أن تستعين بـ... ع... ليدفع عنها أذى القتيل، فقال بمن تستجير !! أليس س... عضو الثالوث «النور، وظل النور، وخيال الظل».

وأشار إلى العاصفة التي اجتاحت لندن في تلك الليلة الليلاء وتأثيرها في أعصاب السيدة المريضة النفس، المضطربة الحس، واستمر في فيوض التدفق البلاغي حتى وصل إلى حادث الإطلاق فمثل أروع موقف في تاريخه كمحام. ووصف القتيل - كرجل شرقي - كوحش!... يهجم على سيدة ليفتك بها، ومثلها وهي تهدده بالمسدس وتصوبه تجاهه، وكيف انطلق ذلك «الشيء» الذي يكمن الفناء في أنحائه... وفيما هو يتحدث عن انطلاق «العيار» أمسك المسدس وظل يسدده إلى صدور المحلفين حينًا، فلما انتهى من وصف القتيل عندما سقط... أملى قليلا... وترك المسدس يسقط من يده على الثرى... فوق بلاط المحكمة! كما سقط على الثرى من يد موكلته فوق بلاط فندق سافوي!!

ولم يك باقيًا إلا أن يفتح الأبواب للمتهمة فيقول: افتحوا الأبواب لهذه السيدة الغريبة لتخرج، لا إلى ظلام الصحراء ولكن إلى بنتها، التي تنتظرها فاتحة ذراعيها، افتحوا الأبواب لترجع إلى الأنوار التي تنبعث من شمس الغرب...! وأشار إلى نور السماء حيث الصحر المتدفق في قاعة المحكمة يشيع الدفء والضياء، فتكاملت بهذه الإشارات إلى النور والدفء وبالحركات والرنات المترددة من سقوط المسدس، ومن قوة ذاته وتدفق عباراته، حبكة مسرحية بلغت ذروتها، لو صنعها محام آخر لسفهه أقرانه لكنها من «مارشال هول» كانت إحدى الروائع... ثم صاح قائلا: إنني لا ألتمس البراءة، ولكني أطلبها من بين أيديكم...

وبرئت مرجريت فـ ... بعد ستة أيام... كأنها الأيام الست التي خلقت فيها الدنيا.

قضية يارموث

فى مساء ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٠ كان على ضفاف النهر زوجان يتناجيان، فبصرا فى ظلمه الليل على مبعدة ٣٠ ياردة بزوجين آخرين يتجاذبان، وسمعا السيدة تقول: الرحمة.

فخليا لهما المكان وانطلقا.

وفى الغداة وجدت فى محل الحادث جثة سيدة فى نضارة الشباب، فأطلق البوليس ذنابيه فى كل ناحية، وظهر أن القتيل مخنوقة برباط حذاء وأنها «السيدة هود» كانت تقيم من أسبوع فى مسكن السيدة «رودروم» ولم تفصح مخلفاتها عن شىء إلا أن أحد ملابسها يحمل نمرة ٥٩٩ من المغسلة.

شهدت صاحبة الدار أن ساعة يدها وسلسلتها ضائعتان وأنها شهدتها يوم الجمعة تحادث رجلا وتناهى إلى سمعها من حديثهما صوت قبلة...

ومضت أسابيع دون معرفة الفاعل. وقيدت القضية: «ضد مجهول لقتله مجهولة»..

ثم تذكرت صاحبة الدار أن خطابًا جاء القتيل من «وولوتش» فضيق البوليس نطاق حدسه، وقصد إلى مغسلة وولوتش وبدأ التوفيق يتخذ سبيله إلى تحرياته، فظهر أن ٥٩٩ نمرة ثوب للسيدة «بنت» وأنها كانت تعيش ثمة فى أغسطس وأبرقت إلى زوجها فجاء لزيارتها ثم رحلت فى ١٥ سبتمبر.

ومضى البوليس فى تحرياته فعثر على الفتى «بنت»، وأنكر «بنت» أنه رأى زوجه منذ شهر يناير منذ تناوشا لعثوره عندها على رسائل رجل آخر.

كان «بنت» بائع صحف فى صباه. فصبى بقال. ولما بلغ أشده لهى مارى كلارك فى السابعه عشرة من عمره وكانت عازفة بيان تكبره بعامين، وكان يهوى الموسيقى، فبنى بها رغم معارضه أبويه.

وفى سنة ١٩٠٠ افتتح دكان بقال واحترق الدكان وصرفت له مائتا جنيه قيمة التأمين...!

وسافر الزوجان إلى جنوبى إفريقيا وقفلا فى شهر مايو راجعين، ولكن متنازعين. فافترقا فى يونيو، هى إلى وولوتش وهو إلى (يونيون عتريت) حيث عرف فتاة أظهر لها أنه غير متزوج، وظفر منها بوعد بالزواج.

وفى ١٤ سبتمبر زار زوجته وفى اليوم التالى تركت وولوتش ولم يعرف نبؤها بعد وعرف

البوليس أن الفتى زار يارموث مع خطيبته قبل الحادث بنحو أسبوع، ونزلا منزلا آخر. وأن القاتل نزل بنفس المسكن، ولكن لم يتحقق هل كان هو نفس الزائر الأول أم لا.

وشهد البعض أن شارب القاتل كان كثا لكن شارب المتهم لم يكن كذلك، ولقد طالما أعلن «بنت» فى الناس أن زوجته ماتت.

ولما فتش مسكنه عثر فيه على ساعة يد وسلسلة؛ وعلى شارب مستعار. قال المتهم عند القبض عليه إنه كان وقت الحادث مع رجلين فكذباه وهكذا سقط أول أدلة النفى.

وتتابعت الأدلة فظهرت صورة للقتيل وفى يدها ساعتها، وتعرف عليه رجال فى عمليات العرض قائلين إنهم رأوه يوم الحادث فى «يارموث»، وشهد صاحب محل عمومى أنه جاء يومئذ مع القتيل إلى محله.

وقامت الصحافة بحملة هائلة، وشاركها الجمهور، فكان البوليس ينقل بنت فى شوارع «يارموث» فتحدق به مظاهرات عاصفة، واسودت وجوه الصحف بالمقالات ضده. والشعر العدائى له. ورسمته بشارب كث لأن الشهود قالوا إن القاتل كان له شارب كث. وسارت الصحف إلى نهاية الشوط فعينت محققين لاستجواب الشهود! فنشروا استجواباتهم ثم تعادوا فعهدوا لأنفسهم بمهام البوليس السرى.

وكل مارشال هول فى القضية لقاء خمسين جنيها - أما محامى الدعوى العمومية فقد وكل بمائة جنيه!...

وهى أتعاب ندر أن وصل إليها محام قبل ذلك العهد.

وشعر الناس أن مارشال هول تولى قضية خاسرة، وازداد مساعدوه إيمانًا بخسرانها كلما قلبوا صحائفها...!

حتى هو شاركهم فى اليأس منها...

لكنه لم يكد يلقى موكله حتى امتلأ قلبه باليقين والأمل.

فياها من أنفس عظيمة حقًا أنفس المحامين، تجاهد لتخترق بإخلاصها حجب الغيب وسجف الخصومات، لتهتدى إلى الحق، أو إلى ما تظنه الحق، وإنها لأقوى وأزكى وأروع حينما يعتقد صاحبها عقيدة لا يشاطره إياها أحد من الناس فينقلها إليهم ويفرضها عليهم؟!

عندئذ يقف المتهم وحده وضده الدنيا... ولكن معه محاميه، وهو حسبه، ويقف المحامى وحده، وضده الدنيا... ولكن معه إيمانه، وهو حسبه.

بدأ مارشال هول معركته بالهجوم العنيف الشامل على خصوم المتهم فى المحكمة وخارجها بعد أن نقلت القضية من محكمة «نورفولك» إلى محكمة الجنايات الرئيسية مخافة ألا تجرى فى نورفولك محاكمة عادلة.

وسلط على الصحافة التى تدخلت فى القضية قبل أن يتدخل القضاء لسانًا لا يعرف الخور، فروع قومًا غير مسئولين يؤلبون الرأى العام ضد المتهم. وأشعر القضاة أنهم مثله ومثل الحقيقة والعدالة مجنى عليهم. فكسب الجولة الأولى.

وانطلق يهاجم الأدلة واحدًا واحدًا فى هذا الجو المواتى من كراهة المتطفلين والمضللين.

إن هذه الأدلة لا تدل على ارتكاب موكله للجريمة وإن كانت تشير إلى أنه لابد أن يكون هو الذى ارتكبها.

فأما الساعة والسلسلة اللتان ضبطتا عنده فليستا الساعة والسلسلة اللتين كانت تلبسهما القتيل، بل هما ساعتان وهما سلسلتان. والدليل على ذلك عين المحامى الفنان. ذى الخبرة القديمة فى المجوهرات. فلقد ذهب يناقش جوهريًا قديمًا من أصدقائه فظفر عنده بخبير فى التصوير يزكى نظريته فى أن السلسلة فى صورة القتيل سلسلة مجدولة، على حين أن السلسلة التى ضبطت لدى المتهم سلسلة ذات حلق من الطرز المهجورة.

واستجوب المصور فأجاب أن الصورة صورة سلسلة مجدولة. وأن السلسلة ذات الحلق لا ترسم على الوجه الذى رسمت به السلسلة بالصورة. وتلك جولة ثانية كسبها مارشال هول.

إلا أن واحدًا من المصورين شهد أن الرسم قد يتشابه من جراء تنفس الشخص المصور، وران الغموض على القضية، ودعا الدفاع الجوهريين والمصورين كما دعا الاتهام جوهريين ومصورين.

لكن الدليل المنتزع من هذه الواقعة أصبح فى قبضة مارشال هول بعد أن كان سيفًا مصلتًا على عنق المتهم.

قالت صاحبة الدار فى البوليس إن الخطاب الذى جاء السيدة «هود» من «وولوتش» كان رمادى اللون أزرق. ولكنها فى الجلسة قالت إنه كان أزرق. فلما لاحظ الدفاع عليها ذلك قالت: إنى لم أقل إنه كان أزرق حالكا. فصاح فى وجهها «لا تذهبى إلى هذه الصغائر معى! إن رقبة هذا الرجل تحت سيف الجلاد!!».

وراحت الشاهدة بعدئذ تؤكد أن الساعة التى فى يد القتيل كانت فى سلسلة ذات حلق لا سلسلة مجدولة..!! وقررت أنها كانت مخطئة فيما ذكرته قبل.

تلك إذن شاهدة الاتهام الأساسية ليست متأكدة، تقرر وتؤكد، ثم تنقض ما تقرر، أو على الأقل، تتردد!!.

وهذا شاهد يقرر أنه تحقق من المتهم إذ رآه يفتل شاربه، والشارب المستعار. كالشارب المضبوط - لا ينفتل، بل إنه لينخلع إذا انفتل!

وهذه شهادات أخر، صغائر، لا تتطابق.

وهذا عود إلى الصحافة جديد!. فلقد شهدت إحدى الشاهدات أنها سمعت المتهم يتهدد زوجته، فسلقها الدفاع بألسنة حداد إذ أفضت بتصريحاتها إلى الصحف فلم تلبث أن قالت إن المراسل أضاف إلى الحديث كثيرًا لم تقله!!

وتلا «مارشال هول» ما نشر فى الصحيفة عنها فوافقته المحكمة على استهجان مسلكها.

واستهل فى اليوم الخامس دفاعه بقوله: «إن أكبر عقبة صادفت الدفاع فى هذه الدعوى هى صحافة المملكة المتحدة فقد كان عمل بعض منها ظلمًا وفضيحة... إن من آثار ذلك أن كل تحقيق لصالح المتهم أمسى خليقًا أن يدور فى ظلام التكتم».

ثم فاجأ المحكمة والاتهام بقوله: «ولسوف أقدم لكم شاهدًا جليلا مبرأ من الغايات يقطع بأنه كان من المستحيل على المتهم أن يقتل فى يوم السبت لأنه كان معه فى السابعة مساء يوم السبت. وآخر قطار يقوم إلى يارموث يقوم فى الخامسة».

وسمعت المحكمة الشاهد.

وفى المساء طفق يترافع ويترافع فحمل على الصحف التى اتصلت بالشهود، لإغرائهم بالشهادة أن المتهم ارتكب الجريمة... وقال «لقد كانت هذه الصحف كالغول يشرب من دماء ضحاياه». واستمر يترافع إلى الفداة، فقال إن الاحتفاظ بالساعة والسلسلة يكون عين الجنون لو كانتا للقتيل! وإن المتهم عندئذ لجدير بمستشفى المجاذيب! فإذا لم تكونا لها فإن الدليل الخطير ينهار، وأطال فى هذه المسألة وجرح الشهود. وبذل فى اليوم السادس مجهودًا جبارًا.

وانحط فى كرسيه عقب المرافعة مهدودًا محطمًا...

وحكم على موكله بالإعدام. فلم يكف عن السعى لإلغاء الحكم... لكن الله أبى...

روبرت وود

وجدت «إميلى ديوك» صباح يوم قتيلا فى فراشها بالمنزل رقم ٢٩ طريق سان بول، وشهد الشهود على فتى كان معها لم يعرف ليلتئذ، كما دلوا على رجال آخرين كانوا يغشون مسكنها ولقى البوليس عندها بطاقة صغيرة عليها بعض كلمات فنشر صورتها الزنكوغرافية مناشدًا الجمهور أن يهديه إلى كاتبها.

فلم تكد الفتاة «روبى ينج» تلقى حبيبها الرسام «روبرت وود» حتى قالت: لقد كشفتك - فهذا الخط خطك!.

وراح يدبران طريقه للنجاة، فدبرا ما ساء لها الهوى والهلع أن يدبراه، غير أن السر هد عصاب الفتاه، وكان وود يقول لها: إن كلمتينا سيواجهان كلام الدنيا كلها

لم تقو «روبى» على مشاطرته فى مؤامرته: وبدأ سرها يخرج إلى الدنيا بأسرها، إذ استشارت صديقًا نصحها بتبليغ البوليس فبسطت سر الفتى كله على مائدة مفتش البوليس.

ولما ألقى القبض عليه راح لادافع عن نفسه بما دبراه، وهو عند البوليس بتمامه! فجعل بنفسه دليل نفيه دليلا للإثبات عليه!.

شهد شاهد أنه بصر لى شارع «سان بول» فى الخامسة من صباح يوم الحادث بشخص عريض المنكبين يبرح المنزل ٢٩ شارع سان بول وأن نور الكهرباء أضاء وجهه وأنه كان يرتدى معطفا «غامق» اللون، وماذه فى العرض من مشيته: فهو كان يمشى ويده اليسرى فى معطفه وكتفه اليمنى مدفوعة إلى الأمام.

وأيدت نسبة تلك المشية إليه الفتاة المخلصة روبى ينج، وكان الفنان الموهوب يملأ وقته فى السجن وفى الجلسة يرسم كل شىء. حتى القاضى.

بل إنه ليرسم محاميًا عنه جلس إلى مفتش البوليس يلعبان الورق، وروحه على المائدة لتكون كسبًا لمن يكسب، فى حين أن الحب أى «روبى» يهمس فى أذن مفتش البوليس بأسرار الورق!...

أما الدفاع فكانت له مخارجه وتوفيقاته.

كانت ليلة الحادث مظلمة وكان صباحها معتما!!

أما المصباح الذى أشار إليه الشاهد فقد خبا نوره، بحسب شهادة شركة الإنارة، قبل الميعاد الذى حدده الشاهد بربع ساعة..

وأما تدبير الدفاع الذى تورط فيه المتهم فمن المحتمل ألا يكون خشية الإدانة ولكن خشية الفضيحة!!

واستجوب الشهود استجوابًا عنيفا، فهذا شاهد الإثبات الأول يشب إلى خيال «مارشال هول» أنه قد يكون القاتل! وتسيطر الشبهة على الاستجواب، فيضطرب الشاهد أيما اضطراب، وتبلغ حماسة الدفاع قمتها فى كل لفتة وحركة!... فإذا ضحك أحد النظارة صاح «مارشال» «إنى ألتمس منكم ألا تضحكوا فحياة إنسان هى الآن فى الميزان».

قرر المحوذى فى الجلسة أنه لقى المتهم قبل الميعاد الذى قرره فى البوليس! ثم ذكر أنه لم يرو ما أسنده إليه البوليس عن المشية الخاصة. وأضاف أن الرجل الذى رآه كان عريض المنكبين، فى حين أن المتهم ضامر.

أما استجواب الدفاع للفتاة العاشقة فكان على نقيض ما جرى عليه المحامون فى البوليس وما توقعه الحاضرون فى الجلسة. إذ كان استجوابًا رقيقًا... رفيقًا، وبهذا أدت أكبر الخدمات للمتهم، وكان مارشال يعتبر موقفه فى استجوابها من أحسن توفيقاته.

قسا على إحدى الشاهدات ذوات الخلق المجرح. فقالت له: إنك تريد أن «تجعلنى» سيئة الخلق! فرشقها المحامى السريع الخاطر بقوله: معاذ الله أن «أصنع» ذلك!!

تساءل «مارشال هول» أولا عن الباعث! فإذا لم يعرف الباعث اضطرب الفكر فى تصوير الجريمة ومعرفة المجرم! ثم انتقل إلى ضمائر المحلفين فى عشرين دقيقة عظيمة يحملهم مسئولية الحكم أمام الله وأمام ضمائرهم ويقول فيما يقول «قد تظنون أنى قسوت على هؤلاء الشهود فى الاستجواب، فمعذرة إذا بدرت القسوة منى. لقد روعنى مصير روح هو الآن فى الميزان. إن الشهود قد يخسرون القليل على يدى، أما المتهم فمعرض لخسارة الكثير على أيديكم! لقد كانت كتفى تنوء بهذه الأمانة الهائلة لكننى الآن قد ألقيتها على عواتقكم».

وقدم شاهدا خرج يوم الحادث فى الخامسة إلا خمس دقائق من ٢٦ شارع سان بول، عريض المنكبين، فشهد أنه رأى يوم الحادث حوذيًا، وأنه يدفع يده وصدره للأمام كتمرين رياضى إذ يبرح داره إلى عمله.

وشهد شاهد آخر أنه نادى الشاهد السابق يوم الحادث قبل هذا الميعاد، وأيد زملاء المتهم أقواله وأطروا شمائله، وأجمعوا أن ليس له مشية خاصة كما زعم البوليس. ولما استجوبه «مارشال هول» أظهره فنانًا، أرق بنانًا، من أن تسفك الدم يداه... ولغير أسباب!.

وراح يبدىء ويعيد فى عدم وجود الباعث، وأن خوفه على سمعته من أن تلوث بمعرفته للمرأة القتيل، هو الذى جره إلى تلفيق دفاع يحول دون القذف بذاته فى المهالك، وتكلم عن شهادة الحوذى التى ينقضها بيان الشركة، وبيان الطبيعة وشهادات الشهود.

ثم صاح فى المحلفين «لو طلب إلى واحد منكم أن يقتل حيوانًا هزيلا يعالج سكرات الموت، وكانت العمدة للفصل فى قتله أو حياته شهادة هذا الحوذى فهل يقبل؟!... إننى لا أتصور أنكم تقتلون هذا الفتى من أجل هذا... فلا ألتمس البراءة ولكنى أطلبها... وإذا هدتكم العناية السماوية فشعرتم بأنه لا يمكن قبول ما يزعمه الاتهام فإن من واجبكم لا من فضلكم، أن تقرروا أنه لم يقتل إملى ديموك».

وانسحب المحلفون ربع ساعة ليبرئوه.

وأطل المتهم على آلاف من الجماهير كانت تنتظر خارج المحكمة لتهتف بحياة محاميه.

أما «روبى ينج» فخرجت فى سراويل رجل، لأن الجمهور كان فى انتظارها.